الفصل الثاني

معارج القلب الإنساني

معارج القلب الإنساني

كتاب "التلال الزمرّدية، نحو حياة القلب والروح" يرسم فيه مؤلفه -فضيلة الشيخ فتح الله كُولن- طريق ارتقاء القلب الإنساني في معارج المعرفة الإلهية التي هي أرقى معارف الإنسان قاطبةً، وكُلُّ معرفة دونها مدينةٌ لها، وظلٌّ من ظلالها، وأثرٌ من آثارها. وقد استعان الأستاذ في رسم معالم هذه الطريق بتجاربه الذاتية، وبتجارب جمهرة من فضلاء مَنْ سلك هذه الطريق نفسها من عظماء الصوفية الملتزمين بكتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام.

والتصوف، على الرغم من كونه تجارب نفوس في طريق التزكية، ومعاناة أرواح يضنيها الشوق إلى الله، تختلف من متصوف إلى آخر، غير أَنَّ مجموع هذه التجارب والخبرات المتراكمة والتي تناقلها الصوفية بعضهم عن بعض عبرَ قرون متتالية تحولت إلى علم له أصوله وقواعده

ومصطلحاته، مثلما أن لكل علم له أصوله وقوعده ومصطلحاته وتجاربه.

وقد وقف الأستاذ عند هذه المصطلحات، وشرح مدلولاتها اللغوية، ومعانيها الاصطلاحية، ومفاهيمها عند أرباب التصوف أنفسهم. ومن خلال هذه المنهجية استطاع أن يجعل القارئ في الصورة الحقيقية للتصوف كما هي دون أي التباس قد يؤدي إلى عدم إدراك مراميه وفهم مقاصده الاصطلاحية التزكوية.

والكتاب بعد ذلك يمكن أن نعدّه نوعًا من أنواع الدراسة للقلب الإنساني في أحواله ومقاماته وسيره وسلوكه إلى الله تعالى، كما أنه في الوقت نفسه دعوة لأرباب القلوب لكي يفيدوا مِمّا يقوم عليه هذا السلوك من خُلُقٍ وأدبٍ، وأذواق وأشواق، في رؤية قرآنية وسنَّة نبوية لا تحيد عنهما. ويمكننا متابعة الأستاذ المؤلف في رؤياه للتطور الروحي للسالك، حيث تبدأ أولى خطوات السلوك عنده بمعرفة النفس التي بين جنبيه، وتجلية جوهرها الإلهي. فالنفس آية من آيات الله تعالى، لذلك أقسم بها بنص القرآن. فَفَهْمُهَا وإدراكُ ما تنطوي عليه من لطائفَ وأبعاد غيبية وشهودية، دليل على أن السالك قد خطى الخطوة الأولى في طريق السلوك.

وتأتي الخطى بعدها متتاليات مترادفات؛ من تخلية وتحلية وتزكية، أو إنْ شئتَ قلتَ؛ من إسلام وإيمان وإحسان؛ وإنْ شئتَ قلتَ، هو علم اليقين، عين اليقين، وحقّ اليقين؛ أو إنْ شئتَ قلتَ، هو استغراق بالكلية في حب الله، وهيام به، وعشق قد يبلغ بصاحبه أحيانًا حد الشده.

كُلُّ هذه الأحوال والمقامات، وارداتٌ وفيوضات تتنزل على قلب المريد، فتنقله من حال إلى حال، ومن قبض إلى بسط، ومن قهر الجلال

إلى باحة الجمال، ومن فرح بالوارد الموجود إلى حزن على المفقود منه، ومن خوف من الإعراض إلى اطمئنان بالإقبال... وهكذا تظلُّ تتقلب النفس في هذه الأحوال والمقامات حتى تبلغ في خاتمة المطاف إلى مقام "الرضى"، وعندئذ تكون هي المعنية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر؛ ٢٧-٣٠).

وفضيلة الأستاذ بكيانه كله، وبوجوده أجمعه، روح عظيم فياض بالمعارف الإلهية. لقد ذهب بعيدًا وبعيدًا جدًّا في ارتقاءاته الروحية، إلاَّ أنه لم يَنْسَ لحظةً واحدةً أنه صاحب قلم مسؤول عن إيمان أمة، وعن حياتها الروحية والحضارية... فما ابتعد إلاّ اقترب، وما غاب إلاّ حضر، وما ارتقى إلاّ ليرتقي بأمته، وما عرفَ إلاّ ليعرّف أمّتَه... فهو دائم الرواح بين الله تعالى وبين خلقه، بين سمائه وأرضه، بين عروج وهبوط، وهبوط وعروج، لكنه مع الأمة دومًا في أوجاعها ومعاناتها.

لقد قرأ لعمالقة التصوف الكبار، من عرب وفرس وترك، وكان له من وجدانه الشاعري، وحِسّهِ المرهف خير مِعْوَانٍ على ذلك، فشرب من الكأس نفسها التي شربوا منها، وخاض البحار نفسها التي خاضوها، وعانى ما عانوا، وَوَجَدَ مثلَ وَجْدِهِمْ، واتَّقَدَتْ شمسُ المحبة في قلبه كما اتَّقَدت في قلوبهم، وسكب الغزير من الدموع كما سكبوا، وأَنَّ، وَحَنَّ، وفاض وَجْدُهُ، والْتهب شوقُه، وعلا نشيجُه، واحترق قلبه، إلا أنه ظلَّ ممسكًا بميزان الشريعة ليفرّق بين مقبولها ومرفوضها... وها هو يؤكد ذلك بقوله: "ففي أمثال هذه المواقف، فالحذر واليقظة وموازين السنة النبوية هي الأساس. أما رجال الحق الذين غلب عليهم الحال وهم مخمورون

بحظوظ المشاهدة، فقد يتلفظون بأمور مخالفة لهذه الحقيقة. ففي أمثال هذه المواقف، ينبغي البحث بإنصاف عن نيّاتهم وعدم الاستعجال في إصدار الحكم عليهم"[٣٩].

وقلب الصوفي -كما يصفه الأستاذ عن دراية- يظلُّ في سُموٍّ وارتقاء إلى آخر مدياته حتى يقف عند ينابيع العطاء الرباني في بهجة وهيام يزداد لَهيبه في قلبه كُلَّ يوم قوةً على قوة.

فصاحب هذا القلب يتحول إلى إنسان عظيم النفس غير الذي كان، ويشعر أن روحه مفعم بعوالم سامية الجمال تتخذه موئلاً وسكنًا، فيتسع بذلك قلبه حتى ليحتوي العالم بأسره، ويعلو عقله حتى ليشرف على سرِّ الواحدية والأحدية ذات الومضات والتجليات في الأنفس والآفاق، وهو في انطراح دائم بذلّة ومسكنة وعجز بين يدي الله تعالى منتظرًا الإشارة والرمز وومضة الهداية إلى الطريق.

ورجال القلوب بهذه المثابة هم تاج الجنس البشري؛ إذا تكلموا أراقوا في كل كلمة من كلماتهم حياةً، وفي كُلّ خاطرة من خواطرهم روحًا، فيخلفون في الأسماع دويًّا مستديمًا، تبقى أصداؤه في حنايا الصدور طوال الحياة، وهؤلاء هم الأمل الذي ظلَّ الشيخ فتح الله يهدهده في كتاباته حيث يقول: "فالذين يريدون تذوّق هذه النشاوى الروحية اللاّمُتناهية إلى الأبد، يُنظّمون هجرات فائقة جادة في كل حين، مما لا يريده الله إلى ما يريده، ومما نهى عنه إلى ما أمر به، ومما لا يحبه ولا يرضاه إلى ما يحبه ويرضاه... فيعيشون في فرار إليه تعالى، لا يقرّ لهم قرار إلاّ بإسناد كل

(٣٩) التلال الزبردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/٢٥٧.

شيء إليه سبحانه، وهذا هو الاعتصام الحقيقي".[٤٠]

والقلب -كما يراه الأستاذ- كونٌ روحي عظيم يقوم قبالة هذا الكون المشهود بسماواته ونجومه وكواكبه، ولكنه حين يغلق نوافذه من دون القرآن يصبح خليطًا من قوى عمياء يصدم بعضها بعضًا ويحطم بعضها بعضًا، بل الحياة نفسها من دون القرآن تقفر وتجدب ويصعب تقبلها، وربما ينتهي عذاب الإنسان في هذه الحياة إلى نوع من أنواع الانتحار الفكري والجسدي.. وكثيرون هم الناس الذين يولون الأدبار في هلع من الحياة، لأنهم عجزوا عن فهمها وإدراك مراميها.. وكثيرة هي النفوس المرتعشة، لأنَّ قبسًا من نور القرآن لم يدلف إليها.

وأنت -أيها الانسان- أتستطيع أن تصوغ نفسك صياغة جديدة...؟! أن تهْدمها وتشكّلها من جديد...؟! أن تعدمها ثم ترتقي بها نحو كمال جديد للوجود...؟! نعم... القرآن يستطيع ذلك... إنه يستطيع أن يجعلك تتسع وتمتد بحيث تتجاوز بما لا يقاس بمصيرك الإنساني الذاتي... بل يجعلك تحسُّ بسمؤوليتك عن الحياة برمّتها، وعن جنس الإنسان بأكمله، بل يجعلك قادرًا على أن تنشئ حقائق جديدة لم تكن تخطر على بال أحد..وإن ملكات عظيمة معطّلة فيك يمكنك أن تبعث فيها الحياة وتنمّيها لتبلغ بك غايات هي ما وراء الموت والحياة، والخير والشر، والأرض والسماء.. حتى إن الأبدية نفسها تظلُّ لا تشغل من وجودك إلاّ بعض هذا الوجود، فإذا بك تصير بهذه الخليقة الجديدة إنسانًا فوق الإنسان، وإيمانًا فوق الإيمان، ويقينًا فوق اليقين، وإلى هذا يشير الأستاذ فتح الله فيقول: "القلب، كالقلعة الحصينة لصحة الفكر واستقامته، وصحة التصور

(٤٠) التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/٥٧.

ووضوحه، وصحة الروح ونقائها، بل حتى لصحة البدن وسلامته... فمشاعر الإنسان المادية والمعنوية تحتمي بهذه القلعة وتُصان بها. لذا فالقلب الذي يحوز هذه الأهمية لا بد له من موضع مراقبة وحَجْر صحي ومنتجع. ذلك لأنه لطيفة عسير جدًّا ضمادها إذا جُرحت، بل أعسر منه إحياؤها إذا ماتت. لذا يوصينا القرآن الكريم بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(آل عمران: ٨) والرسول الأكرم ﷺ يذكّرنا بهذا الحَجر الصحيّ والحماية حيث يدعو مرارًا صباح مساء متضرعًا إلى الله تعالى: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»"[٤١].

وقد وضع الأستاذ في هذا الكتاب -على الرغم من كونه دراسة موضوعية لعالم التصوف- شيئًا من ذاته، وشيئًا من روحه وفكره، وفهمه لروح التصوف وجوهره.

إنه يعلمنا كيف نشحن النفس بقوى الإيمان وطاقاته في مواجهة محن الزمان، وهو يريد من المسلم أن يكون عظيم النفس، هائلاً في عظمته، مهيبًا في سموّه، خارقًا في قوة روحه... وأنْ يظلَّ تَعطُّشه إلى الحياة متأججًا في قلبه.. وإذا ما خانته نفسُه رجع إلى الله متضرعًا: "رجعت إليك فأنقذني من نفسي، اكْسرْ قيودي، حطّمْ سجون ذاتي، ارْفعني إليك، خذْني منّي إليك...!"

فهذا الكتاب مرآة للروح تنعكس على صفحاته، وتعكسه على الآخرين.. والروح لا جهات لها، فمن أين أتيتها فقد أتيتها، وكذلك من أين دلفتَ إلى هذا الكتاب فقد دلفتَ إلى الكتاب كله، وإلى روح صاحب الكتاب.. ومنْ هنا هذا الاقتران الحميمي التجانسي بين الروح والقرآن، فكلاهما

(٤١) التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/٧١.

من عالَم الأمر، بل القرآن نفسُه هو روح نزل به روحٌ على روح سيدنا محمد ﷺ، أو إن شئت قلتَ على قلبه... فالروح والقلب في المصطلح الصوفي واحد كما ورد في الكتاب، وهو الساري في أوصال الوجود والباعث فيه الحياة، كسريانه في الإنسان المنطوي على العالم الأكبر.

والصوفي الحق -كما عند الأستاذ- قرآني الروح، سُنِّيُّ السلوك، فلا عروج ولا ارتقاء إلاّ فيهما ومنهما. فإذكاء نار العداء بين الذين يُسَمَّوْن أهل الشريعة وأهل الحقيقة أجّجَ في السابق ويؤجج اليوم صراعات خطيرة بين المسلمين، وهو وَهْمٌ يجب الانتباه إليه، ولعلّ الله تعالى يقيض رجالاً من رواد الحقيقة ورجالاً من رواد الشريعة ليتداركوا هذا الأمر الخطير ويردموا ما بين المسلمين من هُوّات واسعة عميقة.

وأحسب أن هذا الكتاب هو محاولة في هذا الشأن للتقريب بين المسلمين وإشاعة الود والسلام بينهم.

نستطيع أن نعد هذا الكتاب فهمًا جديدًا لروح التصوف وجوهره، كما أنه يرسم للقلب البشري طريق سير نحو عملية إدراكية للمعرفة الإلهية على ضوء من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.. بالإضافة إلى ذلك فهو يكاد يكون مرآة لروح المؤلف المفعم بالمعرفة الإلهية وكيفية اعتمادها في خدمة الأمة والوقوف معها فيما تشكو منه من آلام وأوجاع ومعاناة.

اللّهُم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحيّنا ربّنا بالسلام، وأدخلنا دارك دار السلام بالسلام، برحمتك ياذا الجلال والإكرام.

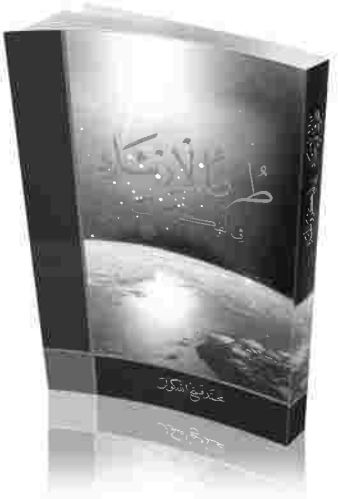

الفاعلية الحركية في الفكر والحياة

- عندما لا يحترق القلب شوقًا، والروح عذابًا، والذهن همًّا، فلا تتكلم.. وإلاّ فلن تجد أحدًا يصغي إليك.
- وعندما لا يملأُك الشعور بأنّ دعوتك هي قلب الكون، وروح الوجود، وأنها ميزان العالم، وصمَّام أمنٍ وأمانٍ له، فكيف تواتيك الشجاعة لمواجهة العالم كله؟!
- وعندما لا يلتهب في دمك عِرقٌ بطولي عارم يدفعك لتحدي قدرات هي أعظم من قدراتك، وإمكانات هي أعظم من إمكاناتك، فكيف إذن ستخرق المتحديات وتصنع الأعاجيب؟!
- وعندما لا تشعر بمسؤوليتك في إنقاذ الإيمان مما يحيق به من خطر عظيم في العالم كله، فكيف تريد إذن من هذا العالم أن يفتح أذنيه

ليسمعك؟!

- وعندما لا يصدر كلامك مُحمّلاً بألطاف من الشفقة والرحمة بأولئك المجذومين روحيًّا ومعنويًّا، فإنّ كلامك معهم لا يزيد عن كونه ثرثرة لا يترك أثرًا في أحد.
- وعندما لا تحسُّ بأنفاس الملائكة تمازج أنفاسك، وبرفيف أجنحتها يلاطف وجهك شاهدةً على ما ينطق به لسانك، فلن تشُمَّ رائحة الصدق الذي من دونه لا تتفتّح لكلامك قلوب الآخرين وعقولهم.
- وعندما لا تدفعك مسؤوليات الدعوة لزيادة الإدراك، وفَهْم توجهات العالم الروحية والفكرية، واكتشاف اللغة التي يمكن من خلالها أن يفهمك، فأنت عابث غير جاد... والعابثون من الدعاة يضرّون ولا ينفعون، ويؤخرون ولا يقدمون.
- وعندما تصاب الروح بالفتور، وتنخفض درجة حرارة القلب، ويخبو أوارُ الفكر، فأنت متوعك روحيًّا... فعليك أن تصمت، لأن الصمت هنا أبلغ من كل كلام ميّت تقوله.
- وإنْ لم تطرح نفسك التي تضايقك وتعذبك بعيدًا خارج نفسك، فكيف يطهر كلامك ويتقدس فعلك؟!
- وإنْ لم تشرق شمس اليقين بالنصر في سماء كيانك، فكيف يكون كلامك دافئًا وصوتك قويًّا؟!
- وإنْ لم ترتّب بيتَ نفسك أولاً، فكيف تستطيع أن ترتب بيوت نفوس الآخرين؟!
- وإنْ لم تكن نفسك جميلةً، فكيف تستطيع أن تجمّل نفوس الآخرين؟!

هذه بعض ملامح عامّة يمكن استخلاصها من هذا الكتاب القيّم "طرق الإرشاد في الفكر والحياة". فمؤلف الكتاب الداعية الكبير الأستاذ الفاضل فتح الله كولن -أمدّ الله في عمره- له في مجالات الدعوة إلى الله تعالى معاناة وتجارب وأحداث ووقائع يمكن أن يفيد منها الدعاة في كل مكان.. وله في هذا الشأن مبتكرات وإبداعات أسهمت في بناء صرح إيماني عظيم على المستويين المادي والمعنوي تكاد تغطّي خارطة تركيا الحديثة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، فضلاً عن إنجازات مثلها في أقطار أخرى خارج تركيا.

وعلينا -ونحن نقرأ هذا الكتاب- ألاّ نتابع انطلاقات قلم الكاتب وحدها، بل علينا إلى جانب ذلك أن نتابع انطلاقات روحه... فالقلم يومئ ويشير إلى هذه الانطلاقات، إلاّ أنه قاصر عن التعبير عنها.

وخير ما يترجم عن انطلاقات روحه ويفصح عنها، هذا الصرح الإيماني العظيم بقدميه الراسختين في الأرض، وبقمّته التي تكاد تلامس السماء، وعندها نستطيع أن ندرك عظمة الروح وقوة الإرادة عندما يجتمعان في الداعية ماذا يمكن لهما أن يفعلا.

والكتاب -بعد هذا الذي قلناه عنه- كتاب فريد في نوعه، إذْ هو ليس كما قرأنا من كتب في الموضوع نفسه بل يمكن أن نطلق عليه عنوانًا آخر، فنقول: إنه كتاب في "فقه المعاناة والألم" من أجل الدعوة... بالإضافة إلى كونه قدحةً تضيء الجوّانيّة العميقة للإنسان، وما تطفح به من نازع إيماني فطري عميق... والكتاب يكاد كله يكون عملية تحريكية لهذه الفطرة المدركة، وترجمة رؤاها، والتعبير عن أهدافها ومقاصدها، كما أنه -أي الكتاب- ضدّ الفوضوية الروحية والفكرية التي تعاني منها الدعوات. وهو

يهدف إلى إرساء قواعد أساسية منظمة في "العمل الدعوي" تحُول بين الداعية والتفَلّت إلى مجالات أخرى غير ملتزمة وغير منضبطة، وبذلك تحتفظ الدعوات بقواها وتمنعها من الانفلات والتبدّد في غير فائدة ولا طائل.

والأستاذ يرى، كما أن الحياة التي نحياها ونستنشق أنفاسها عملٌ فنيٌّ جماليٌّ خلاّق، أبدعه الخلاّق العظيم ﷻ، فكذلك ينبغي أن تكون "الدعوة" حياة تحيا بأنفاس الدعاة وتتحرك بداينمية أرواحهم... وعلى قَدْرِ ما يعطونها من حياتهم، وينفخون فيها من أرواحهم وعقولهم، تنمو وتكبر وتتسع... وعلى قدر توجّههم إلى الله تعالى والاستمداد من رحمته، والتضرع إليه، والوقوف بذلّةٍ ببابه، تتقدّس دعوتهم وتطهر وتجمل حتى تصبح ذوقًا كلَّهَا، وخُلُقًا كلَّهَا، وأدبًا كُلَّها، وتظلُّ بَصْمتُها بصمةً لا يخطئها أحد بين بصمات الدعوات.

والإيمان عند الأستاذ فتح الله -كما يكشف عنه في هذا الكتاب- طاقة حركية ينبغي أن تتحرك على جميع الجهات، وفي جميع الجوانب.. فهي في الوقت الذي ترفع الإنسان إلى سماوات عالية من الإدراكات الروحية، فإنها في الوقت نفسه تجوب الأرضَ، وتتسلَّلُ إلى مفاصلها وشرايينها، لتبعث الحياة في روحها الثقيلة، ودمها المتجمد. فعظمة الإيمان عظمة كوكبية كونية متحركة، إذا وقفت عن الحركة انطفأت وماتت، كأي كونيّ آخر من كونيات هذا العالم الذي جعل خالقه حياته في حركته.

وعظمة الروح وقوة الإرادة اللَّتان تنبعثان من شخصية الأستاذ "فتح الله" تتدفّقان منه نحو طلبته، كما تتدفق شعاعات الفجر في بقايا من ظلمة الليل. فهو يقاسم طلبته حياتهم، ويقاسمونه هم حياته.. فهو فيهم باعث

دراية ويقظة، وهم فيه باعث نظر وتأمل وحُنوّ وإشفاق.. هو ضميرهم إذا تكلّم أو صمت، وهم ضميره إذا تكلموا أو صمتوا.. وهو دموع أحزانهم وهم دموع أحزانه.. وهو قلبهم إذا ترنَّمَ شجًى، وهم قلبه إذا فاض حزنًا وأسًى...

وإنهم ليرون في أحزان أستاذهم عالمًا من القوة الكاسحة التي لا يقف أمامها شيءٌ، وهو يرى في أحزانهم عالمًا من قوة إيمانٍ لا يؤودُها شيء ولا تثقلها فادحات الخطوب، وأن يمين الدهر مشلولةٌ دون الوصول إليهم، وإرادة الشرّ على صلابة أصلابهم ستتكسّرُ.

وهم يرون فيه سِرًّا إلهيًا خفيًّا، إن تكشَّف لهم بعضه إلاَّ أن أبعاضه الأخرى لم تتكشّفْ بعد، وربما سيأتي زمانها ويحين حينها.. لذا فإنهم يتلقون ما ينفث به وحيُ ضميره، وينبثق عنه فكره، وينفجر عنه فؤاده، بكل الاحترام والتقدير والولاء.

ولأنَّهم يرونه قبضة من طينة الحقّ، فإنهم لن يترددوا لحظةً واحدةً في خوض البحار والقفار من أجل الإيمان الذي كرّسوا حياتهم ووجودهم في خدمته. فما الحياة كما يعلّمهم أستاذهم إلاَّ لمحة بين أبدين.. ولحظة متحركة تفصل أبد الماضي عن أبد الآتي ما أسهلَ أن يتجاوزها الإيمان دون أن تَمُسَّ هدوءهُ الجوهريَّ في الأعماق.

* * *

والأستاذ هنا لا يُعَلِّمُ بَقدْر ما يناجي، إنَّه هنا روحٌ كروح النَّاي يناجي حبَّات القلوب، ويسكب أنينه ونواحه في الأرواح، إن آلام الإسلام في ستة من القرون الماضية قد تجمَّعَتْ كُلُّها في روحه، فذاق حزنها، ولبس شجاها، وغُصَّ بمرارتها.. ولكنَّ هذا الأسى، وهذا الشجوَ، ليس أسى

يأْسٍ، ولا شجوَ قُنُوطٍ، إنما هو أسًى في ذَوْبٍ من الضياء، وحزنٌ في هالة من الأمل.. إنه حزنٌ يعمّقُ قوّة النظر ليرى الأعمق والأبعد، وفي الأعمق والأبعد يكمن الأمل، ويأتي الفرج.

* * *

إنه هنا يفصح عن تجربته الدعوية، وعن آلامه ومعاناته في سبيلها.. وفي الوقت نفسه يحاول أن يؤسس قواعد فقه دعوي مستنبط من تجاربه الشخصية، التي تجد في عظمة الروح وقوة الإرادة مددًا يَمُدُّ الدعاة ويقوي من عزائمهم ويفتح سبل النجاح أمامهم.

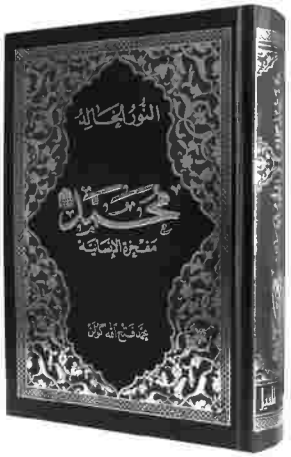

هوامش على كتاب "النور الخالد"

عظيم الروح، عظيم الإدراك، واسع العقل، خصب الفكر، بعيد الخيال... رجل مثل هذا يمكن أن يكون مؤهلاً لكتابة سير الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبإمكانه إلى حَدٍّ ما أنْ يلامس الآفاق العالية لروح النبي عليه السلام، ويتتبع هذا الروح العظيم من خلال الأحداث والوقائع في سني حياته المباركة.

فحياة سيدنا محمد ﷺ ليست كأي حياة، إنها حياة ليست كحياة البشر، وإنْ كان هو بشريًّا خالص البشرية... فهو وحده من بني البشر تهيأ له أن يكتشف جدار الوجود وهو يريد أنْ ينقض على ساكنيه فأقامه وعدَّله، كما يشير إلى ذلك "فتح الله كولن" صاحب "النور الخالد" الذي نحن بصدد التهميش على بعض صفحاته وأفكاره... وقد مَرَّ محمد ﷺ بالإنسان فرآه واقفًا على أطلال الديانات السابقة يذرف الدمع، وينعي نفسه لنفسه..

فواساه وكفكف دمعه، وخاطبه قائلاً: أنا اللبنة التي ظل مكانها فارغًا في الصرح الروحي العظيم، الذي بناه الأنبياء والمرسلون من قبلي، جئت لأكمل الصرح وأكون على رأسه وقمّته.

فقد ناقش "كولن" من خلال "السيرة المحمّدية" في هذا الكتاب مشاكل القلب البشري، ومشاكل انعكاساته في مجاري الحضارة العوراء القائمة.. فهو يرى أنَّ "التاريخ" روح عظيم سرمدي الحياة، يتمظهر في الأحداث والوقائع الإنسانية... وعلى ضوء هذه النظرة يرى أنَّ سيرة محمد عليه السلام ليست سيرة نبي جاء إلى الدنيا، وماتت سيرته بموته.. بل هو يرى أن سيرته تشكل أعظم حيويات التاريخ البشري منذ ولادته عليه السلام، وإلى أن تقوم قيامة العالم... فهذه السيرة ليست جزءً من التاريخ، بل هي قوام التاريخ، وكبرى أعمدته التي يقوم عليها، ويتأثر بها، ويتفاعل مع أحداثها شاء أم أبى... لأنها هي العقل الموزون في جنون العالم، والصواب في أخطائه، والحق في أباطيله، والاستقامة في انحرافاته.. لذلك لم يعد العالم اليوم في حاجة إلى نبِيّ جديد، لأن سيرته عليه السلام تقوم مقام أي نبِيّ جديد حتَّى على فرض قدومه.

وكل كتابة في السيرة لا تنطلق من مفهوم الخلود الذي اختاره لها القدر، فهي كتابة قاصرة لا ترقى إلى المستوى المطلوب في تناول حياة هذا الرسول الكريم عليه السلام. ومن هذا المفهوم جاء عنوان كتابه "النور الخالد".

ولئن كانت هذه "السيرة" لا تلقى ما تستحقه من الاهتمام عند الإنسان اليوم، فليس ذلك بسبب قصورها الذاتي عن الامتداد الآفاقي والأنفسي، بل بسبب الهبوط الإدراكي لمشاكل وجود الإنسان المآلي والمصيري،

وارتباط ذلك كله بأسباب البقاء والخلود.

فهذه السيرة -في رأي "كولن"- تمدُّ قارئها ومعايشها بقوى الحياة، إذا ما ضعفت هذه القوى في نفسه لأي سبب من الأسباب، كما أنها تستنهض قواه الذاتية الخافية لتسهّل له عملية رسم أشكال سامية من الحياة لم يكن ليحلم بالوصول إليها.. فيرى عندئذ روح القدر وهو يسوق الأحداث نحو مآلاتها المقرَّرة في اكتساب المزيد من المعارف الإلهية التي خُلِق الإنسان من أجلها، فينحاز في كل سلوكياته إلى المطلق من الصفات والمعاني، ويعزف عن النسبيات والمحدوديات، ولا يجعلها تستحوذ عليه وتفقده وعْيه وإداركه.

إنَّ السيرة المحمّدية لم تكن يومًا ما تاريخًا فحسب، بل هي تربية روحية وأخلاقية وإرهافية وتهذيبية وجمالية للذي يقرأها، فضلاً عن الذي يعايشها؛ لأنه يلتقي محمدًا ﷺ صاحب السيرة وجهًا لوجه من خلال أحداث سيرته ووقائعها.

"أجل، إنه حيّ ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة.. فكلما تقادم الزمن ازْداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا... إنَّ الزمن يتقادم ويشيخ، وإنَّ بعض المبادئ والأفكار تتعفَّن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ﷺ فتبقى متفتّحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام"[٤٢].

وبقراءة هذه السيرة -كما هو مجرّب- يمكن استعادة "الصحة الروحية" التي كثيرًا ما يفقدها الإنسان في خضمّ هذه الحياة ولأسباب مختلفة. فهي تَصُبُّ في النفس استعدادًا هائلاً وطاقة عظيمة لصد أسوأ

[٤٢] انظر مقدمة كتاب "النور الخالد" للمؤلف فتح الله كولن.

ما يمكن أن يعتري الإنسان من غفلات كما يؤكد على ذلك "كولن". كما أنَّ هذا الغموض المزعوم للعالم عند البعض يبدأ بالانكشاف ويتخذ صفة المعقولية الوجودية عند ما تنسب لخالق الوجود أولاً وآخرًا. وهذا ما يحاول "كولن" إثباته من خلال الوقفات عند المنعطفات الكبرى من السيرة. فعذابنا الذهني الذي كثيرًا ما يؤجّج في نفوسنا جحيمًا لا يطاق نظل نتقلب فيه السنين الطوال، يمكن الخلاص منه إذا ما عرفنا محمّدًا ﷺ على حقيقته بصدقه وأمانته، وبالحق القرآني الذي أوحي به إليه. فآلام محمد ﷺ وعذاباته وهو يصدع بالحق الذي أُنزل عليه كان الترْياق المنشط لقيامه بأعباء الدعوة دون توقف، وهو المثال والقدوة الحسَنة لكل ما يصيب دعاة اليوم من آلام وعذابات كما يؤكّد "كولن" من خلال كتابه آنف الذكر. فالسيرة عند "كولن" هي عملية تنظيمية لكيفية استقبال الحياة تحت أقسى المقاييس وأشدّها، وهذا هو المثل الأعلى الذي يمكن استخلاصه من أحداث السيرة ووقائعها.

إنّ هذا الكتاب جولة مباركة في آفاق السيرة النبوية الشريفة، تحت نظر القلب، وبمعية الروح والوجدان. إنه يتتبع النور المحمدي الخالد، ويمضي معه في اختراقه سدف الظلام، وتدفقه في شعاب التاريخ والإنسان.

فالسيرة عند مؤلف الكتاب "فتح الله كولن" حضور دائم لا يغيب، يعايش أحداثها المباركة في فكره ووجدانه، ويمتلئ بها حسُّه وشعوره... إنها نبض القلب، وخفق الجنان... إنها تشكل عقله، وتنظم فكره، فتنعكس عنه سلوكًا محمديّ البصمة، وسننًا يحرص على أن يشكل منها واقعه وواقع الناس.

وسيرى قارئ هذا الكتاب كيف أكثر المؤلف من الوقوف عند

المنعطفات الكبرى في السيرة، وكيف زاد من تأملاته في أحداثها الخطيرة، وأشبعها فحصًا ودراسة، واستخلص منها العبر والعظات، واستنبط الدروس، ورَتّبَ المهم لحياتنا الحاضرة وما هو أكثر أهمية، وما هو مُلحٌّ وأكثر إلحاحًا، وأشار الى التوافق بين سنّته ﷺ والسنّة الكونية، وكيف أكّدت السنة على الحيطة والحذر والأخذ بالأسباب في صغير الأمور وكبيرها، وكيف جاءت السيرة موافقة لها... فالنجاح -كما تؤكد السنة- قمينٌ بِمَنْ يعقل ويتوكل، لا بِمَنْ يتوكل ولا يعقل.

كل هذه الأمور سيجدها القارئ في هذا الكتاب مؤطرة بإطارٍ روحيٍ عالٍ، وبعقلانية موزونة لا إفراط فيها ولا تفريط.

- فهو رؤية متميزة في دراسة السيرة النبوية.
- وجولة مباركة في آفاق السيرة الشريفة، بعقل المؤرخ، وبمعية الروح والوجدان.
- ومحاولة جادّة من أجل جعل سيرة الرسول ﷺ حضورًا دائمًا لا يغيب عن عقل المسلم وعن وجدانه.
- ووقوف عند المنعطفات الكبرى في السيرة وإشباعها فحصًا ودراسة.
- وتوكيد على التوافق بين سنته ﷺ والسنة الكونية والحياتية.
- وعرض لنماذج تطبيقية من حياة الصحابة الكرام عن مدى فهمهم وتشربهم لتعاليم الرسول ﷺ.
- وإفادة من السيرة الشريفة، واتخاذها نبراسًا يهتدي بها الدعاة إلى الله في هذا العصر.
- وتوكيد على شمولية الإسلام من خلال معطيات السيرة، وأنه دعوة عالمية يخاطب الإنسان في كل مكان وزمان.

القرآن وعالَم الوجدان

القرآن الكريم كتاب الله المنزل على قلب محمد ﷺ، ليسترشد به الجنس البشري، وليستقرَّ عليه الكون والوجود، وعليه تقوم قيامة العالم، وبه يشقى مَنْ يشقى، ويسعد مَنْ يسعد.

والقرآن يرفعنا فوق العالم، إلاَّ أنه لا يطلب مِنَّا الانسحابَ منه.. ويعلو بنا فوق الكون، في الوقت الذي يريد منَّا أنْ نتنبَّه لأقلّ جزئياته بداهةً وأُلفةً.. ويغوص بنا إلى أعماق موغلة في الإنسان، لنصغي معًا لأَخفى أنَّات روحه، وأوهن أوجاع قلبه.

وإلى مناطق بكرٍ غير مكتشفة من قارَّات الروح يأخذنا "القرآن"، ويرتاد بنا أبعادًا هائلة، وقِمَمًا عالية جدًا، ثم يحذّرنا من الالتفات إلى الوراء، وإلاَّ دار رأسنا، وربما هوينا من شواهق ما وصلنا إليه إلى سحيق ودْيان ما كُنَّا فيه.

وهو يسمو بوجداننا فوق العقل، إلاَّ أنه يظلُّ يذكّرنا بأنه -أي العقل-

معراجنا مع الوجدان في هذه الفوقية.. ويخترق بنا آماد الزمان والمكان، حتى لنكاد نشعر بأمواج الأبدية وهي تضرب شواطئَ أرواحنا، وتنساب إلى دواخلنا، وفي برزخٍ بين أن نكون -بشرًا سويًّا- أو ألاَّ نكون، يوفقنا القرآن لنرى رأينا ونحزم أمرنا.

وشتيت الروح، وانقسامات النفس، وتشعبّات الفكر، وزائغات النظر، تجد في القرآن ما يلمُّ الشتات، وَيُوْحِّدُ الشِعَبَ، ويجمع المقسَّمات، ويعيد للبصر وحدة النظر ليزداد حدَّةً وقوةً فيرى "اللاَّمرئي" فينا، "واللاّمرئي" في الكون والوجود... وهو يعلمنا أنَّ مَنْ لم يكن واحدًا في ذاته، كلاًّ في فكره، جمعًا في وجدانه، فلن يكون له نصيب من تجليات أنوار الواحدية والأحدية؛ لأنَّ الإيمان الحق، هو الإيمان الذي ينبعث عن الكيان الإنساني كُلِّهِ.

والقرآن -بعد ذلك- ينبوع قوة يتدفق من قوًى غيبية ليستقوي به الضعفاء، ويحيا به الأموات.. وهو العقل المبعوث لجنون كل الأعصار، وشعاع الروح الأزلي فوق ظلمات القلوب والنفوس... فكلماته محمّلة بسحائب الحياة، وآياته تقطر أنداءَ جمالٍ وجلالٍ. وبمقدار ما يجهل الإنسان منه، يكون جهله بنفسه وبالكون وبالوجود مِن حوله... إنه باعث غريزة التوحيد وفطرته من كوامن الإنسان.. وهو عين العالم وقلبه، كم من عقلٍ غَيَّرَ، وكم من روح سما بها، ووجدان ارتفع به.. إن قوانين الفطرة ونواميس الكون تتألّقان في سماء كلماته وآياته.. وفي ثناياه يرقد العقل كله، ومنه تُسْتَنْشقُ أنفاسُ الحياة، وفيه تأْتلف قوى الطبيعة والفضيلة، ويغوص الكُلُّ في فيض من الحب الإلهي.. وهو يعزّز قوى الحواس، ويفتح نوافذ الخيال، ويؤجج ثورة عشقٍ في سويداء القلوب والأرواح.. أما نبلاء الفكر، فإنهم يجدون فيه النبل كلَّهُ، والشهامة كلَّها، والعظمة

كلَّها... وكمْ من خيالٍ فَتَنَه، ومِذْواقٍ سحره، وبلاغةٍ ركَعتْ لبلاغته.

لقد مَزَّقَ القرآنُ أكفانَ الصمت عن النبُوات السابقة، وأقام الأنبياء السابقين من مراقدهم، واستنطقهم ليقولوا كلمة الحق في محمد ﷺ، وليأنس بأنفاسهم، ويتأسَّى بسيرهم وبما لاقَوْه من عَنَتِ أقوامهم، وما صبّوه عليهم من نُكْرٍ وعذاب.

لقد هَزَّ محمد ﷺ بنداءَاتِهِ قلب السماء، فانتفضتْ حتى غدت جعبة سهام ناريّة تنطلق لتصميَ أفئدة الشياطين وأتباعهم من المشركين، أينما وجدوا وحيثما كانوا.

وبين قلب محمد ﷺ وقلب الكعبة عشقٌ متبادلٌ عميقٌ موغلٌ في القدم، فهو تَوْأمها في الوجود الغيبي، وهي شطر ذاته، وبعض أجزاءِ جوهر حقيقته في مرايا عالَم المثال، ويومَ وَضَعتْ مكةُ وديعتها الغالية بين يدي العالَم غَطَّت الكعبةَ سحائبُ أسًى لما ستأتي به الأيام القابلة من فرقة وافتراق قدَري لا مناص من وقوعه، قبل أن يسمح القَدَرُ وبعد سنين من الكفاح المتواصل بالوصال من جديد.

هذه -أخي القارئ- بعضٌ من أفكار ومشاعر ومعانٍ جاءت على صفحات هذا الكتاب، وأُريد أن أُنبّه إلى أَنَّ مؤلف الكتاب العالم الكبير الأستاذ فتح الله كولن لم يزعم أنه في معرض التفسير لما تناوله من آيات قرآنية، على الرغم من امتلاكه لكل شروط المعرفة التفسيرية و أدواتها. وكُلُّ الذي فعله أنه سَجَّلَ في هذا الكتاب ما تلقاه من وَمَضاتٍ والْتماعات وإشارات من بعض مَا تَألّقَ في سماء وجدانه المرهف من نجوم القرآن. ومع ذلك فإنه لم يغفل تمامًا آراء المفسرين في الآيات التي عرض لها، غير أنه توسع بعض الشيء فيها، وانقدحت في خاطره أفكارٌ وَمَعَانٍ جديدة

مضافة، تحتملها الآية من حيث تركيبها اللغوي والبلاغي، ولا تشتطُّ أبدًا في الابتعاد عن أصول التفسير وقواعده المعروفة. ولا شك أنَّ هذه الخطرات أَمْلَتْها ظروف العصر، وظروف الدعوة الإسلامية المعاصرة، وأوحت بها معارف العصر وعلومه وتوجهاته الفكرية والروحية... ورحِم الله النورسي الذي قال: "إنَّ الزمان أكبر مفسّر للقرآن".

وأنا على ثقة من أن هذه الخطرات حول بعضٍ من آي القرآن الكريم سوف تجد لها صدًى واسعًا في فكر القارئ العربي ووجدانه.. فترجمة هذه الأعمال الدعوية والفكرية للأستاذ "فتح الله" إلى العرَبية، عمَلية تنشيطية للأفكار، وهي تبادل معرفي جيد بين عقول المعنيين بشؤون الإيمان وقضايا الإسلام هنا في تركيا وهناك في العالم العربي.

جزى الله عنا الأستاذ الفاضل فتح الله كولن خير الجزاء، وآمل من رحمة الله القدير أن يجعل ذلك في صحائف عمله يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلاَّ مَنْ أتى الله بقلْب سليم.

والكتاب في سطور:

- قدحات قرآنية أشعلت وَجدًا في سماء الوجدان.
- إشارات وخطرات مستوحاة من آي القرآن الكريم أملَتْها معارف العصر وعلومه وتوجهاته الفكرية والروحية.
- ذهنية اسْتنباطية متفتّحة لمعانٍ جديدة لها من آراء المفسرين قاعدة وسند.
- إدراك استيعابي لفاعلية القرآن في النفس والمجتمع.

روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

المؤمن الحق كما يريده "الإيمان" نفسه، رجل لا يمكن أن تستنزفه تفاهات العيش، بل هو رجل ثائر بكل معنى الكلمة ضد "التفاهة" بكل أنواعها وأشكالها... صحيح أننا نحيا في هذا العالم، إلاَّ أننا نَمتُّ بصلة قوية إلى عوالم جادّة غاية الجد تسكن خارج عالمنا. وإنّ حياتنا الأوسع والأعمق حياةٌ موجودة خارج هذه الحياة، ومرتبطة أشد الأرتباط بالقوى الإلهية الخلاّقة التي صنعت الإنسان ومنحتْ كيانه الأعماقي قوى وطاقاتٍ إذا ما استطاع أن يفجرها فإن دويُّها سيملأ الآفاق، وسيرى في رعودها وبروقها رعود روحه وبروق قلبه.

والمؤمن -كما يريده خالقه- إنسان إيجابي فَعَّال يشارك بكل طاقاته وإمكاناته في حلّ معضلات الوجود الإنساني على هذه الأرض، ولا يقف قَطُّ منها موقف المتطلع والمتفرج، لأنَّ من أعظم مهماته ومسؤولياته

الموكَّلة إليه من ربِّ العالمين الاستماتة من أجل إطلاق قوى الإيمان الخفية والفطرية في الكيان البشري، لكي يزداد الإنسان فهمًا عن نفسه وبالتالي يزداد وعيًا وإدراكًا لعمله الرسالي في هذا العالم... فالأمر الوحيد الذي يستحق أن يكافح الإنسان من أجله طوال عمره هو أن يكون إنسانًا إلهيًّا ربّانيًّا.. فما لم يتحول تاريخ المؤمن كله ليكون تعبيرًا حيًّا عن إرادة الله فيه وفي العالم، فإنه لن يشفى من كساحه الروحي المميت.. وما لم تواته الجرأة على تحطيم حبوسه الضيقة التي ألقاه فيها الزمن، والانطلاق بقوة إلى ما فوق الزمن، ليرى العالم من هناك، ويرى مكانه من هذا العالم، فإن دمارًا روحيًّا رهيبًا سيلحق به لا يقْدر على تجنبه، وسيظل لقية مهملة في زنزانات التاريخ لا تثير انتباه أحد. ولا خلاص للمؤمن اليوم من هذه الاندحارات الروحية والمادية سوى بعْثه من جديد لروح الجهاد في روحه وعقله.

فالجهاد بمفاهيمه العميقة والواسعة التي يحدثنا عنها أستاذنا الكبير فتح الله كولن هو عملية فصد للدم الفاسد والآسن في روح المسلم بسبب جموده وركونه إلى الراحة والدَّعة، وتخلّيه عن مهماته ومسؤولياته تجاه نفسه وأمّته والعالم.. فالكسل والفراغ عنصران من عناصر التدَهور والانحلال وخور الروح والقلب كما يرى أستاذنا.

فالجهاد بشقَّيه الأصغر والأكبر كما جاء في الحديث الشريف دواء لا دواء سواه لاسترداد المسلم لعافيته الإيمانية وصحّته النفسية والعقلية، وإنقاذه من السقوط في التفاهة والعبثية و "اللامعنى"... وعلى المسلم أن ينتفض من رقاده الطويل، ويسارع إلى اقتحام أهوال الجهاد في ميدان نفسه الوسيع أولاً، لتزكيتها وترقيتها وترويضها، لكي تحيا ضمن مقومات

الإيمان وتعاليم الإسلام، فتبلغ من الرقيّ والتزكية حدًّا تؤهّل صاحبها لتلقّي الإمدادات الإلهية والقدرات الربانية، فيمتلك من هذه القوى ما يرشحه لكي يكون عقل العالم إذا جُنَّ، وميزانه إذا اختلَّ، واعتداله إذا اشتطَّ، وإيمانه إذا كفر، وحلمه إذا جهل، وعدله إذا ظلم، ودواءه إذا مرض... وإن كل قطرة دم تهرق ظلمًا وعدوانًا في أي مكان من العالم تستصرخه وتشكو إليه، لأنه هو خليفة الله في أرضه، ورحمته على عباده.. وبذلك يغدو المسلم نقطة المركز في دائرة العالم في الحقّ والعدل والخير.

فحقيقة الجهاد وروحه -كما يعرضه لنا الأستاذ- إنما هو مداد ودم، وكلمة وسيف، ونور ونار.. وليس هو دمًا وسيفًا ونارًا فقط، بل هو كل أولئك، وإلاّ تحوّلنا دون أن نشعر -من كوننا عنصر بناء وإعمار كما يريدنا الإسلام- إلى عنصر هدم وتخريب وحرق وإحراق، ونكون قد أسأنا إلى إسلامنا وعتَّمنا عليه وغشيناه بسحب سوداء قاتمة تجعل الآخرين يخافون منا كما يخافون من أشباح الليل وقواه الشيطانية.

هذه المفاهيم عن الجهاد وإن كان عمرها أربعة عشر قرنًا إلاّ أن الكثير منا -ولا سيما في هذا العصر- قد نسيها أو تناساها أو أكد على جانب منها دون جانب، أو أخذ منها ما يروق له ويخدم توجهاته الفكرية أو السياسية، وأغفل عن عمد جوانبها الأخرى... غير أن أستاذنا -أمد الله في عمره- عالج موضوع "الجهاد" من جميع جوانبه، ووضع هذه المفاهيم تحت حزم ضوئية قوية كشافة، حتى لا يلتبس الأمر على الدارس الجاد الذي يبتغي الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

فذهنية المسلم اليوم ذهنية معذبة تعاني من اختلاط الأوراق واختلاف

الأفكار والمفاهيم، وكثرة الالتباسات والاشتباهات التي علقت بالكثير من المصطلحات الإسلامية... ولعلَّ أخطر هذه الالتباسات ما لحق بمصطلح "الجهاد" في الإسلام، حيث أحاق بهذا المصطلح ظلم عظيم سواء من قبل الأعداء المتربّصين بالإسلام كلَّ شر، أو مِن بعض الأصدقاء الذين يحْلو لهم أن يفسروه كما يشاؤون من دون أن يبذلوا أي مجهود لدراسته الدراسة المُعمَّقة للتعرف على حقيقته ومفاهيمه وأبعاده الإنسانية.

ولا أضيف جديدًا إذا قلت: إن هذا الكتاب هو دراسة معمّقة جدًّا لمصطلح "الجهاد في الإسلام" على ضوء الكتاب والسنة، واستقراء التاريخ والسيرة، مع عرض نماذج من شخصيات صحابية خطوا بدمائهم الزكية أعمق معالم الجهاد المعنوي والمادي -كما يعبّر الأستاذ- على صفحات تاريخ الإسلام.. ولا أشك لحظة واحدة بأن هذا الكتاب سيملأ فراغًا فكريًّا في ذهن المثقّف المسلم، وسيجلي ما غمض من أمر الجهاد في النفوس أو اعوجّ من شأنه عند الآخرين، وسيكشف عن ممارسات مغلوطة تمارس باسم الجهاد بينما هي أبعد ما تكون عنه.

والكتاب يعرض بعد ذلك شمولية الإسلام في تناول قضايا الحياة كافة، واحتضانه الإنسانية جمعاء، وتوفيقه بين شؤون الدنيا والعُقبى، ورفعه الإنسان إلى مرتبة أحسن تقويم. كما يشرح الجهاد الأصغر والأكبر بشكل تفصيلي مع بيان وظائف الجهاد وما يلحق بالمسلمين من المهالك والأخطار بتركه. ويبين مدى خطر الإرهاب وخدمته للأعداء الخارجيّين الذين يريدون الصيد في الماء العكر.

والمؤلف بأسلوبه البديع يخرج الجهاد من مفهومه الضيق، ويجعله أمرًا يملأ حياة المسلم بكل حركاته وتصرّفاته وسكناته وتفكيره.. وأن

الجهاد الأصغر مرتبط بما يحرزه المسلم من الانتصار في ساحات الجهاد الأكبر في نفسه وعالمه الداخلي. وعلى المسلم أن يقوم بوظيفة التبليغ والإرشاد في المجتمع الذي يعيش فيه لإنقاذ مَن يجوب في وديان الضلالة ويضيّع حياته في سبيل العدم.. وأن الجهاد هو وظيفة الأنبياء وسبب خلق الإنسان وشأن الخلافة على الأرض، وذلك أن الهدف المقدّر للإنسان هو الإيمان بالله ومعرفته تعالى والوصول إلى طريق الخلود بتلك المعرفة والإيمان ورؤية جلوات البقاء والخلود في هذا العالم الفاني.. والجهاد بمفومه الواسع هو الكفيل بالوصول إلى هذا الهدف المنشود.

صور وأفكار

يسعى "فتح الله كولن" في كتاباته كلها إلى بعث "لغة الروح" من جديد، واستنهاض مواتها من تحت التراب... فهذه اللغة -للأسف الشديد- كادت تندثر في هذا العصر المجدب، وتغيب عن الوجود.. فقد نأت أكثر الأقلام عنها، وأهملت الكتابة بها أو العناية بشأنها، واختارت عن قصد مرةً وعن غير قصد مرة أخرى لموضوعاتها لغاتٍ تفتقر إلى العمق الروحي والوجداني، فجاءَت جافَّةً مجدبةً قلَّما تبلُّ غلة قلب، أو تروي عطش روح.

والأستاذ "فتح الله" بإجماع النقَّاد والمعنيين بشؤون الإنسان الفكرية والروحية من الباحثين والمحققين، هو واحد من أعظم رجالات القلب البشري في هذا العصر؛ لا أقول في بلاد الأناضول، بل في أرجاء العالم قاطبة... وهو بإجماع الدارسين متمّم لما بدأ به "النورسي" من فتوحات

عظيمة في مجاهيل القلب والروح والفكر في رسائله "رسائل النور".

فجوهر الروح الديني هو الإيمان بالبقاء، والإيمان بأنَّ الذات الإنسانية عالم كامل وكون عظيم، وهو منبع خوالجنا وأحزاننا وأفراحنا.. ومن هذا الإيمان انبثقت أفكار "كولن" بشمولية النظر، وعمق الفهم والإدراك؛ فراح يطيل النظر فيما تقع عليه عيناه من صور ورسوم على الورق، فقام يفسر ويؤوّل، وبنظره الثاقب اكتشف خفايا الصور وما توحيه من معانٍ وأفكار.. فشرع يرسم الصورة من جديد ليس بالقلم والفرشاة وعيون الكَامِيرات، بل بالكلمات والعبارات.. فإذا الصورة كائن حيّ تهمس وتتكلم بما تنطوي عليه من معان وأفكار.

فهذا الإدراك لمعاني الصور لا يتأتى لإنسان محدود الزمان والمكان والتفكير والشعور، لأن "الواقع الصوري" وإنْ بدا محدودًا في النظرة الضيقة المبتسرة، غير أنه في الحقيقة له ارتباطاته الكونية وعلائقه بالطبيعة والحياة والإنسان.. فالصور الصامتة للمتأمّل الحصيف تقول ما لا يقوله ألْف لسان ولسان.. فقد طمس الكلام من حقائق الأشياء أكثر بكثير مما كشف من أباطيل.

و"كولن" ذو خيال خصب واسع، وهو لذلك يقرض الشعر، فسعته من سعة خياله، وفهمه للصورة مصاغ من معدنه وكنزه.

فهذا الكتاب -عزيزي القارئ- إنما هو لوحات غاية في الجمال مرسومة بالكلمات والأفكار والمعاني كما أوحته هذه الصور الفوتغرافيه.. فهي فكر وأدب وفنّ ونظرات دقيقة في الإنسان والكون والحياة، وهي بعد ذلك كله غذاء قلبي وروحي للجوعى من أصحاب القلوب، والعطشى من أصحاب الأرواح.

وسيطالع القارئ في هذا الكتاب، ومن خلال التأويلات التي يرسمها لهذه الصور، تلك الشعلة الدائمة المتوقّدة في روحه وفي عقله، ويلمس قدرته الفائقة على إلباس -حتى الجمادات- شيئًا روحيًّا مذكّرًا بالمبدع العظيم سبحانه وتعالى.

ولغة الروح التي يعرفها الأستاذ "فتح الله" جيدًا قراءةً وكتابةً، هي التي تملي عليه أفكاره، فيقيدها في المتن القصير والعبارة الموجزة، هذه المتون والعبارات قد يستغرق شرحها عِدَّة صفحات.

إنه هنا لا يستشهد بالآية من القرآن الكريم، ولا بالحديث من السنة المطهرة، ولكنه يأتي بروحَيهما أو بما يشيران إليهما مرةً من بعيد، ومرةً من قريب.. فانطلاقاته كثيرًا ما تكون من الأشياء الملموسة والمرئية إلى ربِّ الأشياء ومكوّنها.

إن "المألوفات" عنده هي "معجزات" إذا نظرنا إليها بعمق وتأمَّلنا ما ترمز إليه من "القدرة والحكمة والعلم" من ضمن أسماء الله الحسنى... أضف إلى ذلك أنّ هذه النصوص من السهل الممتنع التي يفهم منها القارئ على قدر موروثاته الثقافية والفكرية والروحية. وكما أنّ القرآن الكريم يفتح في كُلّ آياته بابًا على العقل، ونافذة على الروح والوجدان، ثم يترك للقارئ حرّية الاستقراء والاستنباط، فمؤلف هذا الكتاب يفعل الشيء نفسه متأثرًا بالقرآن، فيفتح في هذه النصوص أبوابًا على العقل وأبوابًا أخرى على القلب والضمير، ثم يترك للقارئ حرّية الفهم والتأويل دون تدخّل منه.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنّ بعض صور الكتاب قد تجمع بين النقيضين، وتؤلف بين الضدّين، من أجل المزيد من إلقاء الضوء على المعنى الذي

يريد المؤلف التركيز عليه؛ فالشكل عنده أو بالأحرى "الصورة" تخدم المعنى، وقد يكون العكس، فيخدم المعنى الصورة كذلك.. فكلاهما "المعنى والصورة" يخدمان مقاصد هذا الكتاب وغاياته الأعماقية الفكرية والوجدانية.. إنه يريد أنْ يفضي هنا بجميع مكنونات صدره مستنطقًا كونيات الأشياء ومتحدثًا باسمها وبلُغتها، محركًا بهذه اللغة الحِسَّ الجامد، والفكر الكليل، والوجدان العليل.. إنه هنا يربط بين جوّانية الإنسان وحتمية العالم البَرَّاني.. فالنزعة الفنّية التي يكتب بها نصوصه نابعة من الإنسان وشوقه الأبدي لتأكيد ذاته وإنقاذ نفسه من الفناء والعدم، وفي هذه الصور وفي مستوحاة الأستاذ منها قوة متحركة وجذوة متّقدة، لأنها مصاغة من قلبه ومن روحه بشاعرية فنّية مبدعة، هي بمجملها طراز جديد من الفكر المبدع يستوحي الصورة ويستنطقها أو ينطقها هو بما يريد فتتضح معمَّيات الأشياء والأفكار.

فالوجود كله صور وظلال، صور شبحية وظلية لحقائق غيبية "ماورائية"، تعجز عقولنا عن إدراكها، وتقصر مفاهيمنا عن استيعابها، فتسيل ظلالها من عالم الملكوت إلى عالم الملك.. أو إنْ شئت قلت، هي أشباح ذلك العالم.. أو إنْ شئت قلت، هي أطياف تطوف في أذهاننا ومخيلاتنا كمرايا تعكس من حقائق الأشياء على قدر ما تطيقه أفكارنا ومخيلاتنا منها.. فالصور هي تجسيد لخفايا المعاني، نفهم منها بعض ما تعكسه علينا من مجردات المعاني. فالتجريديّون من المفكرين والفلاسفة والفنّيين يلجأون إلى التجسيد والتصوير لكي يعطوا لتجريداتهم أشكالاً ترمز إلى خفايا ما يكنّون من أفكار ومعان.. فالجنة نفسها التي هي من تجليات أنوار الرحمة والقدرة شاء الله تعالى أن تكون جسدية حسية لترمز إلى قدرته تعالى

ورحمته بعباده.

ومن هنا جاء اهتمام "كولن" بـ"الصورة"؛ فالصورة عنده كائنات حيّة يمكن أن نفهم عنها وتفهم عنَّا إذا نحن تكلّمنا معها بلغة الروح التي يحسن الأستاذ التكلم بها.. وهي تُخفي من المعاني أكثر مما تظهر، وترمز إلى مَعالِمَ من عالمي الملك والملكوت، اللذين يرتبطان ببعضهما ولا ينفصلان.. فإذا هو تحدث عن "عالم الملك" وَشَّاهُ بألوان من "عالم الملكوت" وإنْ شاقه شيء من عالم الشهادة ربطه بمثله من عالم الغيب... فكلامه كله يدور في مستويات فكرية عالية، وانتقالات ذكية بين "النسبي" و"المطلق" و"المتناهي" و"اللامتناهي"، وبين جزئيات الحياة وكلّياتها، وجزئيات الكون والطبيعة وكلياتهما.

ولإيمانه بـ"الكلمة" وبقدراتها على الخلق والإبداع والإنشاء والتغيير استخدمها ووضعها في مكانها المناسب من "النّص" المرصود لهذه العمليات التي هي الغاية الأساس من كل الإبداعات الفكرية والفنّية.. ومن أجل ذلك كان يعتمد "العنوان" لكل ما يريد قوله أحيانًا، ثم يشرع في الشرح والتبيان، وأحيانًا أخرى يشرح ويفصل ثم يجمع ذلك كله بأوجز عبارة بمثابة عنوان لما فَصَّل وشرح.

وكما أنّ صاحب النظر الواسع والعميق يمكن أن يرى في قطرة الماء الواحدة بحرًا واسعًا، وفي الذرة عالَمًا، فكذلك القارئ الحصيف يمكن أنْ يصغي إلى خفقان قلب الكون خلال سطور هذا الكتاب وخواطره وأفكاره، ثم يتلمس وجدانه فيجده قد اخْتُطِفَ منه وصار جزءًا لا يتجزّأ من وجدان هذا الكتاب، ومن مشاعره وعواطفه... وإني لأحسب أنّ "الكلمة المبدعة" التي يتلهف عليها العالم المتمدّن سيجدها في محتويات

هذا الكتاب. إنّ امْتزاجًا غاية في الروعة الفنّية بين كل شيء في السماء مع كل شيء في الأرض في نشيد ملْحمي واحد سيشكل عالمًا لحنيًّا يطرب نفوس طلاب الأدب والفن والفكر الصافي والوجدان النقي.

إنّ مَنْ يطرق أبواب هذا الكتاب إنما يطرق أبواب مملكة واسعة الأرجاء من المشاعر والأفكار. وقراءته تعلّمنا كيف نعيش في مستوى عالٍ من الحدس والشعور المرهف والحس الرفيع، مثلما نعيش بأذهاننا وأفكارنا.. وأنْ نكون على استعداد على الدوام لنرى صور الأشياء المحيطة بنا من كل جانب وهي طافحة بالإيماءات إلى خالق الصور ومنشئ الأجساد والأرواح ﷻ.

إنّ نضالاتنا الذهنية تبدو بلا معنى إذا نحن لم نُدخِلْ إلى حومة النضال معنا قوى أرواحنا ومشاعرنا وخيالنا وأحاسيسنا وكل لطائفنا الأخرى لنستقوي بها جميعًا في هذا النضال في مواجهة مِحَنِ الفكر والإيمان. إننا ملزَمون جميعًا أنْ نضرب عاليًا في معارج الرقي الإنساني. وأيّ توقّف عن هذه الغاية سيدفعنا دون شعور منّا إلى دركات سفلية مظلمة تفقدنا البصر والبصيرة؛ فالروح المنكفئة على نفسها ستصاب بالبرداء والارتعاش عند دخولها عالم الأرواح الحركية الحارة، شاعرةً بالغربة بينها، وبالدونية تجاهها. إنّ شيئًا من الاستفزاز الروحي سينتابنا ونحن نجوس خلال هذا الكتاب، وهو ما يقصد إليه المؤلف في كل كتاباته، وهذا بالقطع سيساعدنا على تلقّي الإشارات الغيبية لولا ما عندنا من كبرياء واستعلاءات جاهلية تحول بيننا وصفاء السمع ونقاء الرؤية.

لقد أثقلتنا الآثام ودنّستنا الدناءات، فغلظت مشاعرنا، وتورمت أحاسيسنا، ولم نعد كما كنا ذلك المركز الاستشعاري الذي تهزّه نسائم

الغيب، وتحركه إلهاماته، وتقوده لاستكشاف آيات الله في صور الأشياء وتعكس من معانيها الشيء الكثير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وخلاصة القول فالكتاب في سطور:

- انطباعات صور على صفحة وجدان شفّاف.
- قلم حي يبعث الحياة في الجامد والموات.
- نظر مجنّح الخيال يرى في الصورة ما لا تراه العيون.

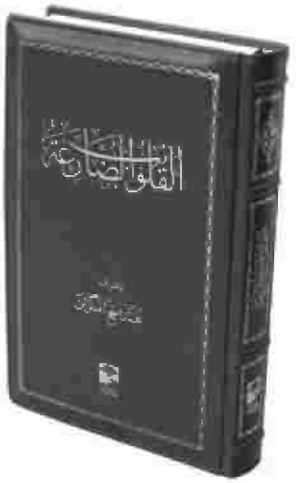

خلايا الذات النائمة

تظل الكثير من طبقات "الذات" عند الإنسان، تعاني من الركود والجمود والسأم والضجر، لأنها معطَّلَة لا تعمل، وساكنة لا تتحرك؛ فخلايا ذاته النائمة، وقواه الخافية المخنوقة، لا تعود إلى الحركة والعمل إلا إذا حفّزها حافز، أو ألَمّت بها ملمة.. فإذا ما خافت وارتعبت، وأحاطت بها المخاطر من كل جانب، جاشت هذه الذات وارتفعت درجة حرارتها، ونهضت لتعمل بكل طاقاتها وطبقاتها من أجل مدافعة المخاوف والأخطار، وعاد الدم يتدفّق إلى أجزاء روحها من جديد، وسارعت إلى اللجوء إلى مَن هو قادر على إعانتها وحمايتها مما يتهدد وجودها ويسعى إلى موتها.

فجنْس الإنسان، جنس ضعيف وعاجز مهما تظاهر بالقوة والقدرة؛ فقُواه محدودة، وقدراته ناقصة، تحيق به المخاطر من كل جانب، فلا يستطيع مدافعتها وحده من غير معين ومساعد، لذلك فهو مضطر للجوء

إلى صاحب القوة والقدرة المطلقتين، وهو الله سبحانه وتعالى...

فالذات الكسلى، ما لم تتجرد من أردية الكسل، وتقف أمام الله تعالى عارية مكشوفة القلب، مفتَّحة الصدر، مخلصة القصد، مطلقةً ألسنة التضرع والدعاء، فلن تجد الطمأنينة والأمن والسلام... فالإنسان المعاصر بكل ما وصل إليه من العلوم والمعارف، وبكل ما أنجزه من مخترعات ومكتشفات، فهو يعاني الكثير من الشتات والانهيارات والتمزّق، إنه يكاد يتحطّم على أرضية حضارته كما تتحطم قارورة الزجاج الأنيقة والرشيقة إذا سقطت على الأرض تهشمت.. إنَّ حياته اليوم -للأسف الشديد- مجموعة من الفوضى لا يعرف كيف ينقذ نفسه منها ويعود إلى عالم من النظام والتنظيم الروحي والعقلي معًا.

فـ"القلوب الضارعة" بلْسم لضمير الإنسان المعذَّب، وإفصاح عن حقيقة إيمانه، وعن عمق هذا الإيمان وجوهريته.. إنه يتكلم بلسان الفطرة، ويتحدث عن لواعج القلب، ويترجم عن حاجات النفس، ويبين عن أشواق الروح.. إنه يفتح كوة في جدار الوجود يتطلع منها الإنسان إلى الهدف الذي خُلق من أجله، والمصير الذي إليه سيفضي.. إنه مثير للطاقات الحيوية الخامدة في الإنسان، ويأخذ بأيدينا إلى مكان الصدارة من هذا الكون، وينقذنا من القزامة الروحية، والضئالة الإيمانية، فتتعمْلق أرواحنا، وتتعالى قوانا، وتغنى إدراكاتنا الإيمانية.. وهو يشحذ الجانب الكفاحي من النفس الإنسانية ضدَّ شرور العالم، وهو دعوة ملحة لتركيز الذهن بعظمة الألوهية، ويمهد للمزيد من التعرف عليها، والتأمل فيها.. ثم هو بعد ذلك "القلوب الضارعة" ينقذ الإنسان من مشاغله التافهة التي تشغله عن ربه، فيحب القرب منه، والتعرف على مراضيه ومساخطه.. كما

أنه ضد الضحالة على أنواعها، وضدَّ الكسل الروحي الذي هو منبع كل شقاء الإنسان، بل يعمل على إحياء الجذور الروحية شبه الميتة فيه..

فهذا الكتاب الذي هو نتاج عظماء الروح يسعى بمجمله إلى تغيير الإنسان من الأدنى إلى الأعلى، ومن "اللاّهدَفية" إلى "الهدفية"... إنه صرخات إيقاظية لمن يغطّون في نوم "اللاّمبالاة"، ودعوة لسيطرة الإنسان على نفسه، ولجمها عن هواها... إنه يريد من الإنسان أن يكون مرآة صافية نفيسة، تعكس الومضات الإلهية المنبئة عن الوجود الإلهي الأكبر والأعظم من كل وجود.

بين دفتي هذا الكتاب -الذي جمعه العالم الرباني فضيلة الأستاذ "فتح الله كولن"- أنّات قلوب، وأشواق أرواح، ودموع واجدين، وضراعات توابين هارقين نجيعهم على عتبات سامع النداء، ومجيب الدعاء، ومكفكف الدموع، وقابل التوب، الرحمن الرحيم، والبَرّ الغفور ﷻ...

هنا يتلاشى الزمان ويضمحلّ المكان، ولا شيء يبقى غير فيوضات أشواق، وومضات احتراق، ومكابدات أكباد، وكوًى تتفتح على أبد الآباد، ومشاكي أنوار تتألق في سماء الخلود.

هنا رجال أدركوا فَسَموا بإدراكهم، وعَرَفوا فارتفعوا بعرفانهم. فلم يعودوا واقعين تحت ضغوط الأرض، أو محبوسين في ضيق الكائنات. إنهم رجال مُلهَمون، وإلى آفاق الغيوب يستشرفون.

رجال "القلوب الضارعة"

سألتني -أيها العزيز- أنْ أعرِّفك برجال كتاب "القلوب الضارعة"... مَنْ هم... وما أحوالهم وشمائلهم وأوصافهم..؟ فأقول وبالله التوفيق:

إنهم رجال ليل... ذوو لوعاتٍ وزفرات... وأَنَّاتٍ وعَبَرَات... ودموع سافحات... وأشواقٍ حارقات... وآلام صارخات... وأحزانٍ كاويات... وألسِنَةٍ ضارعات... وأَكُفٍّ مرفوعات... للرحماتِ مستنزلات... وللألطاف الإلهية راجيات...

بأنفاسهم يتعطَّر الليل... وبوجودهم تحت جناحيه... يأنس ويطرب... وبركعاتهم بين جنبيه إلى ربِّه يتقرَّب... جنان الخلد إليهم شَوَّاقات... وعيون الحور العين إليهم رانيات... ولهم منتظرات... أبصارهم نافذات... وبصائرهم كشَّافات لَمَّاحات... تلمح البعيد... وترى "ماوراء" الآفاق... وتستشرف مستقبل الأقدار... وما يأتي به الليل والنهار...

إنهم أوتاد الأرض... ورواسيها الشامخات... من دونهم تترنح الأرض... ويصيبها الدوار... ويعمّها الاضطراب...

إذا ما غابوا... غاب الأمان... ونصب الخوف راياته في كل مكان... وعلى الأرض تُصَبُّ البلاءات صبًّا... إنْ لم يأتوا الكعبة أتتهم... وفي صلواتهم وافتهم... وأمامهم انتصبت... وقُدَّامهم وقفت... تزيدهم أشواقًا... وخشوعًا وإخباتًا...

بهم تندى الأسحار... وبدموع أرواحهم تتساقى الأرض كؤوس الوجد والاشتياق... إذا ما استمعنا إليهم شعرنا بأنَّ عالَمًا جديدًا يُخْلَقُ فجْأةً في أرواحنا... فهم يودعون في أرواحنا من الأسرار ما لا نجسر على الإسرار بها حتَّى لأنفسنا... نتشرب دموعهم قبل أن تجفَّ عن أجفانهم...

إنَّ أوتار حياتنا تظل ساكنة إلاَّ إذا حركتها كلماتهم، ولامستها أنامل أذهانهم... إننا إذْ ننحني أمام سمُوِّ أرواحهم، وعلوّ أفكارهم، ينحني معنا الذكاء البشري المتواثب إلى الأعالي، والتوّاق إلى استرداد الروح من

أعاليها الماورائيات وسماواتها الصافيات، وآفاقها النقيات...

إذا قلوبَنَا أعطيناهم، استودعوها أرواحهم، وملَّكوها بصائرهم... لنرى برؤاهم، ونبصر ببصائرهم، وننهل من معين معارفهم، ومن ينابيع علومهم...

إنهم إذا لحظوك غيروك، وبالآخرة ذكَّروك... وإنْ كنتَ في هبوط انتشلوك... أوكان قلبك بغير الله مشغولاً أفرغوه ثم بذكره أترعوه...

عقولهم بأجنحة الروح تجوب الزمان، وتستقرئ الأكوان، وتحمل الإنسان بعيدًا في الزمان، لتلقيه في غوالب لُجَّهِ، وغوامر موجه، ثم لتذيقه بعد ذلك من شراب الخلود، وتسقيه من كأس السرمدية رشفات...

وإن كانت عيناك بضباب الأرضيات محجّبتَين، أزاحوا ضبابهما، وحَدُّوا نظراتهما، فبصرتَ واستبصرتَ، ورأيتَ الملْك والملَكوت قائمين بقوامة الله وقدرته...

إذا نطقوا انْثال نطقهم فكرًا جليلاً، وحكمةً مُصَفَّاة... يفسرون لك لُغْزَ الكون، ويعلّمون طريقك في الدنيا والآخرة... الأنوار في أرواحهم ينابيع دَفَّاقة، تغسل الإنسان من الأدران، وتطهّره من الأرجاس... إنْ بَرُدَ وُجْدَانُكَ أَوْقدوه، وإنْ أظلم أناروه... ماء الجمال والبهاء يتقطّر من أردانهم، ويفيض من وجوههم... باعث حزن وشجن في أصواتهم إذا تكلّموا... تسابيحهم في الليالي وَجْدٌ وأشواق، وصلواتهم ضراعات باكيات، يخافون أن يكونوا من أهل الغِرَّةِ بالله، ويشفقون أن تُرَدَّ عليهم أعمالهم، ولا تُقبل تضرعاتهم.. حشاهم في نيران الوجد مذاب، وأفئدتهم مسيل دفَّاق، تشرب منه الأكباد الحرَّى، والأرواح العطشى... إنهم قوى مشعّة تنفذ في الإنسان، فتحرك سواكنه وتحيي مواته...

إنهم الغيث المغيث لمجدبات الأرواح، وقاحلات العقول... وعيون غيوثهم لا تنضب أبدًا، وعطاؤهم لا يتوقف عند حد... صلاتهم فناء بالله، وبقاء به، فهم بين فناء وبقاء... في غدو ورواح، على منابع أرواحهم يرِد العطاش، ومنها ينهلون، ووقدات نيران عشقهم جذوات لبُرَداء النفوس وشواتي الأرواح...

يضربون في فيافي الإنسان وفي قفاره، يتسمعون إلى أسى ترانيمه المنبعثة من ضنى القلب ووجع الروح، فتمتدّ أيديهم لتمسح القلوب، وتُطبَّ الجروح...

إنهم للأرض ربيع دائم، وللإنسان غمام هاطل... وإنهم في المكان الأعلى من سلم البشرية، يكفِّرون بأحوالهم عن خطايا جنس الإنسان...

وإنْ كنا عاجزين عن بلوغ قممهم، فلا أقلَّ من أن نحبّهم وندين لهم بالولاء...

فـ"القلوب الضارعة" جدْول رقراق، وماء زلال، لعطشى الأرواح وظامئي القلوب.. "القلوب الضارعة" أَنَّات أرواح، وتوجُّعات أفئدة، ترتفع عاليًا مستجدية الرحمة والغفران.. "القلوب الضارعة" أشواق أمّة، وضراعات إيمان.. "القلوب الضارعة" دعْوة للعجز الإنساني كي يلتجئ في عجزه إلى قدرة القادر القدير، وقوّة القوي المتين.. "القلوب الضارعة" طرقات قلوب وأرواح على أبواب رحمة الرحمن الرحيم.. "القلوب الضارعة" مدخل عظيم للتعرّف على الله تعالى في علُوّه عن خلقه، وفي قربه منهم في الوقت نفسه..

إذا كان الدُّعاء مخّ العبادة كما ورد في الحديث الشريف، فإنّ "القلوب الضارعة" هي عصارة العبادات جميعًا.. يا شجيّ الروح، ويا

جريح الفؤاد..! دعْ "القلوب الضارعة" تأخذ بيدك إلى حيث اليدُ الآسية، والرحمة السابغة.. يا مُقْفِر القلب، يا مُجْدِبَ الروح..! خُذْ "القلوب الضارعة" غيثًا لقلبك، وخصبًا لروحك.. إنْ كنتَ بعيدًا عن الله، فغُصْ في "القلوب الضارعة"، يأْتِكَ القربُ.. وإنْ كنتَ مستوحشًا، فادخلْ عالَم "القلوب الضارعة" يأتِك الأُنْسُ.. وإن كنتَ مذنبًا، فبِماء "القلوب الضارعة" اغْتسلْ لتتطهّرْ...

من وحي كتاب

"الموازين أو أضواء على الطريق"

يقول الأستاذ فتح الله في كتابه "الموازين" ما يأتي:

"الإنسان سائح، والكون معرض للمشاهد الملونة، ومكتبة زاخرة مطروحة لنظَره وتأمّله وسياحته. وهذا السائح أُرسِلَ إلى هذا العالم لكي يقرأ هذه الكتب، ويزيد في معرفته. هذه السياحة الممتعة لا تتيسّر للإنسان إلاّ مرة واحدة. وهذه السياحة الوحيدة تكفي بالنسبة لصاحب العقل الرشيد، والقلب اليقظان لإنشاء جَنَّاتٍ كجنَّات عدن، وكجنَّات "إرَم ذات العماد". أما بالنسبة للذين يعيشون مغمضي العيون، فلا تكون سوى لحظة عابرة تأتي ثم تمضي بسرعة"[٤٣].

إنَّ لسان حال الأستاذ يقول:

---

(٤٣) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٣٥.

أيها الإنسان!.. أيها المسلم!..

كيف يمكنك أن تعيش ومثل هذا الجحيم من البعد عن الله في قلبك وعقلك..؟ أعلمُ أَنَّكَ ضربتَ في الأرض كثيرًا، وَجُبْتَ الأقطار تبتغي الخلاص مِمَّا في داخلك من نيران... ولكنك لا زلتَ مريضًا خائفًا حتى من وجودك ذاته، ولا زالتْ نيران الجحيم تزداد استعارًا... جوعك الروحي يتفاقم.. عطشك لرواء الإيمان يزداد حرقةً.. مخاضات فكرك غاية في العسر...

متى تؤمن بالنظام والمعنى الكامنين في الحياة؟! متى تؤمن بالتوافق الأبيد بين الإنسان والكون والحياة؟! متى تؤمن بأنَّ الكون نفسه يمد إليك يد المعرفة والصداقة؟! متى تؤمن بأنَّ السلوك الإنساني في هذه الحياة يجب أن يكون مترعًا بالجمال والمودّة والمحبّة؟! متى تؤمن بأَنَّكَ موجود بالله ولله...؟!

إنَّ شعاعًا إلهيًّا يمكن أَنْ يسطع في روحك لو أردت ذلك... لم أَعُدْ أُطيقُ نُوَاحَكَ الحزين... اُصْحُ... أنتَ وعي غائب... افتحْ قلبك كله لتتسلّل إليه لحظة من لحظات نور الإيمان الخالد... بعض نفسك ميت، متى تلحده إلى الأبد، وتبعث الحياة في بعض نفسك الآخر..؟ عقلك مُنْهَكٌ... روحك مُتْعَبٌ... لا تركد فتفسد... أتريد صاعقة من السماء تحرق جهالاتك وضلالاتك...؟! متى تسري فيكَ حُمَّى المعرفة...؟!

أَعْلَمُ أنَّ أحاسيس نظيفة تنتابك بين مدة وأخرى... انْتبهْ... إنْ لم ترعها وتسقها من ماء القلب قتلتك قبل أنْ تقتل نفسها... لا شيء تملكه يمكن أن ينقذك مِمَّا أنت فيه...

لو كنت موجودًا حقًّا، فقل لي مَنْ أنتَ...؟ ولماذا أنت موجود...؟ لا

شيء يعطيك المعنى والمغزى غير الإيمان... ولا أحد يقدر على إضاءة نفسك غير الإيمان... أتبحث عن عقيدة سياسية تنقذك من عذابك...؟ هيهات... هيهات... أنت على خطإ كبير ... إنّ الدين هو أعمق جذورًا في النفس الإنسانية من أيّة عقيدة سياسية تؤمن بها... تحرّرْ من قيود نفسك أولاً، إنْ كنت تريد الحرية... أنت ميّت تبحث عن الموت، ونحن نريد لك الحياة... أتريد للموت أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة فيك...؟! ثمَّ تُطوَى صفحتك ولم يعد أحدٌ يذكرك... أتستطيع أن تتجاهل الموت وتدير ظهرك إليه...؟! إذن ماذا أعددت له...؟ أين روحك الطاهرة لتجد مكانًا لها بين الأرواح المتجانسة المترابطة... تفصلنا عنك رغباتك الأرضية المشتعلة... متى كنت سماءً شديدة الصفاء لكي يبرق في أفقها نور الحقيقة...؟! أين ذكاؤك المتجدد...؟ إنك لن تكون الأخير على هذه الأرض لتشهد الحياة وهي تسير إلى نهايتها التي لا يمكن تجنّبها...

لا تمطر دنياك بالمزيد من اللعنات... إنها لم ترفضك... ولكن رفَضَتْ جهالاتك... ليست طبيعتك الإنسانية مريضة، بل المرض جاءك من خارج نفسك... أنت إنسان ولست رمزًا حسابيًّا في هذا الكمّ البشري الهائل... يجب أن تَعلم أنّ هناك طريقة أخرى للحياة هي أطهر وأنقى... إنّ لحظةً إيمانية واحدة تكافئ كُلّ السنوات اللاّحقيقية التي عشتَها... هل أنت مستعدّ لتبدأ الحياة من جديد...؟! حسنًا إذن... هاتِ يدك واتّبعني، ولا تلتفت وراءك...

يحزنني أن أراك ساقطًا في هوة "اللاّمعنى" وأنت تنتحب... أنت صاحب إرادة، ولكن أين الدافع...؟ إرادة بلا دافع لا تعمل... ليكن دافعك معرفة الله... عند ذلك تأتيك الإرادة راكضة لتسعفك وتعينك...

ألم يَئِنِ الأوان لكي تتوقف عن الانحدار إلى عالم الظلام...؟! لماذا أنت فاتر الهمّة...؟ لماذا لا تشعل هِمَّتَكَ، وتوقد إرادتك...؟ لَمْلِمْ نفسك، ولا تكن موزَّع النفس... وحّد نفسك... فيك مئات من "الأنا" المتصارعة، وحِّدْ "أناك".

أنتَ سُؤُومٌ ملول... يسأمُ مَن لا يعمل... مَنْ لا ينشغل بالعظيم، شَغلَته الصغائر... هيَّا كنْ للخدمة مثلاً أعلى... تقدَّمْ، فإنّ باب العمل مفتوح... لا يمكن أن تكون هناك أماكن راحة لرجال الخدمة... كنْ غيورًا على وقْتك...

تحرّكي أيّتها الطَّاقة الإيمانية في الأعماق، فما زال أمامنا شوط بعيد...

* * *

هذا الكتاب عبارة عن نظرات في مختلف شؤون الفكر والحياة والمجتمع. وهو يضع أمام القارئ موازين دقيقة في مختلف هذه الشؤون، ويفتح بصره وبصيرته أمام حقائق عديدة قد يغفل عنها وهو في خضمّ هذه الحياة... وهي حقائق تمثل روح الأمة وفكرها وذاتها وماهيتها، وتحول دون ذوبان الفرد المسلم في تيارات الأفكار الواردة إلينا من الغرب أو من الشرق، وتحقق شخصيتنا واستقلال أفكارنا.

إنه يرسل نظره ليجول في شؤون الفكر والحياة والمجتمع، ثم يزن كل ذلك بموازين الحق العادلة والدقيقة التي لا إفراط فيها ولا تفريط. إنه يرسم للفكر منهاجًا، وللسلوك طريقًا، ويحرص على ألاَّ يجعلنا نسقط في هاوية الضياع، وعلى أن نكون ذوي شخصيات إسلامية مستقلة بنظرتها إلى جوهر الوجود وحقيقة الحياة.

ونحن نقيم صرح الروح

إن هذا كتاب نفيس لم نقرأ له مثيلاً يرسم خارطة دقيقة وتفصيلية للكيفية التي يمكن بها إقامة هذا الصرح العتيد من وهدته. والكتاب -بعد ذلك- طافح بالأمل في مستقبل قيام هذا الصرح، وهو حين يقوم فسيكون أعجوبة من أعاجيب هذا العصر، يعلو على كل صرح، ويسمق فوق كل حضارات القلب والروح في الماضي والحاضر..

كما المنارات في عرض البحار تهدي بالْتماعات أضوائها في الليالي الحالكة السفائن إلى مراسيها، هكذا هي صروح الروح منارات تهدي الشعوب إلى برِّ الأمان والسلام..

وقد نهض "كولن" يشمّر عن أردان روحه وفكره من أجل أن يقيم هذا الصرح الذي عملت فيه معاول الهدم والتخريب منذ زمن بعيد، حتى كاد يتهاوى أنقاضًا ولم يعد يؤدّي رسالته في الهداية والصلاح... وقد انتدب

نفسه لهذا العمل العظيم ونادى إليه أصحاب الهمم والإرادات ليسهموا معه في هذا البناء الذي يؤمَّل أن يكون صرحًا عظيمًا تأوي إليه القلوب والأرواح، وتقبس من أنواره، وتستضئ بأضوائه..

فكان هذا الكتاب "ونحن نقيم صرح الروح" واحدًا من إسهامات رجال الروح في تبيان آليات هذا البناء وكيفيات إنشائه لبنةً لبنةً حتى يكمل البناء، ويقوم الصرح على قواعده الإيمانية الراسخة وأفكاره المتجددة.

يعاني المسلمون تفككًا روحيًّا رهيبًا، وهذا التفكك هو سبب مشاكلهم الإيمانية وأزَماتهم الحضارية. وهذا الكتاب القيم يشخص عِلَّةَ هذا التفكك، ويبين أسبابه وتداعياته. فعلَّةُ العلل في ذلك هو انهيار صرح الروح، وسقوط مناراته العالية الذي أحدث دويًّا سمعه العالم كله، وأحدث اضطراباً هائلاً في شخصية المسلم وفي أُسس إيمانه.

إنَّ هذا الكتاب يجوب القلب البشري ويأتي بلبنات البناء من مقالعه، ويجوس خلال الروح، ويعود بفلذاتها لتكون الحجر الأساس فيه، ولكي يعلو شامخًا بحيث يراه العالم كله من أي جهة نظر إليه، ويجد في ظله الأمن والأمان. وخير من يقوم بهذه المهمة الإيمانية الحضارية هو جيل الطهر والإيمان الذي لم تتلوث روحه، ولم يتنجَّسْ قلبه.

والكتاب طافح بالأمل في مستقبل قيام هذا الصرح، وهو حين يقوم فسيكون أعجوبة من أعاجيب هذا العصر، يعلو على كل صرح، ويسمق فوق كل حضارات القلب والروح في الماضي والحاضر.

فهذا الكتاب خارطة إنشاء يرسمها عقل هندسي كبير لبناء هذا الصرح من حبَّات النفوس ولبنات العقول.. فـ"كولن" دائم التذكير بحاجة الأمة إلى هذا الصرح الذي إذا افتقدَتْه افتقدَت كلّ شيء، وإذا بنَتْه وصانَته من

عوادي الزمن، فإنه سيغدو أولى خطواتها إلى حضارة عظيمة لا زالت الأجيال تحلم بها وتترقب قدومها.

ونحن نبني حضارتنا

في عالمنا الإسلامي ما انفكت صروح الفكر السامي تتهاوى صرحا بعد صرح، ولبنة إثر لبنة، بفعل معاول الهدم والتخريب التي ظلّت تعمل بصمت مريب خلال قرون عديدة.

في هذا العالم المنقض يقلّ البُناة، ويعز البنّاؤون... فالأستاذ "فتح الله كولن" هو واحد من قلة من البُناة الذين يسعَون لترميم المتصدع، وإقامة المنقض، وبناء المنهدم.

وكتابه القيم "ونحن نبني حضارتنا" مَعْلَمٌ عالٍ من معالم الصرح البنيوي الذي يعمل على إنشائه من جديد، وإقامته على أسس من القوة والمتانة ليسلم من عوادي الزمن، وعواصف الأيام والسنين، ويستعصيَ على معاول الهدم والتخريب.

ففي هذا الكتاب سجل حافل للأدوية التي يصفها لعافية الروح

الحضاري، واستشفائه من أمراضه... إنه يعتمد في بناء الأساس الحضاري كما يتنبأ به على ما يمكن أن نسميه بـ"الروحية العلمية" التي تمزج بين عالَمَي الفكر الروحي والفكر العلمي. إنه هنا لا ينطلق من فكر هوائي تأملي، بل من فكر تجريبي واقعي. فالمدارس التي يشجّع على إنشائها في أرجاء العالم تعتمد هذا النهج في فلسفتها التعليمية والتربوية.

إن هذا النهج مجرَّب في المتأثرين بأفكاره من المثقفين والمتعلمين، لأنه دينامُو المجتمع الحضاري الذي ينشده في أعلى قمّة من قمم الروحية مع أعلى قمة من قمم العلمية في يقينياتها المؤكدة.. لأن الإنسان عنده جسر يصل بين الطبيعة التي هي منشأ كل العلوم، والروح الذي هو منشأ كل الأديان؛ وعليهما كليهما تنشأ الحضارات، وتقوم المدَنيات.

وأفكاره في كتابه "ونحن نبني حضارتنا" تدور حول العمل على التوحيد النفسي والفكري بين عالَمَي الطبيعة والروح؛ إنه يرسم لحياة المسلم طريقا لا يستطيع معها أن يتساءل: لماذا أنا هنا..؟ وماذا أصنع بحياتي..؟ لأنه لا يجد ذلك التناقض المؤلم بين طبيعته الطينية وأفكاره السماوية. لأنه يخلُص في خاتمه المطاف إلى الإيمان بأن هناك قوة مبدعة أعلى من كل إبداعاته، وأنه إذا كرّس نفسه لخدمتها فإنه سيبلغ أسمى أهدافه في الحياة والخلود.

فالأستاذ "كُولَن" في هذا الكتاب يكاد يصرخ وهو يشير إلى الإنسان الذي يعيش تحت سقف الكون أن نفسه ونفس الكون هما من طبيعة واحدة، فأخوف ما يخاف منه الأستاذ "كولن" أن يسقط المسلم في فراغ حضاري قاتل ومجهول، فيظلَّ طافيا على السطح لا هو ميت فيُنْعَى، ولا هو حي فيُرجَى.

إن مشكلة المسلم الحضارية اليوم هي أن حُمَّي الحياة لم تصبه بحرارتها لكي تنشط ذاتيته التي تنطوي على أغلى كنوز وجوده الإنساني والحضاري، لذلك فهو يحاول في هذا الكتاب أن يذكِّره بهذه الكنوز ويحفزه للبحث عنها والحفر من أجل العثور عليها.

إن المسلم بقدر ما هو يشعر بالضعف، إلا أنه في الوقت نفسه يمتلك من القوى الخفية، ما إن تتفجَّر حتى تُحْدث ذلك الدويَّ الحضاري الذي يظل يتصادى في أرجاء المعمورة لقرون كثيرة من الزمن.

فكلما زادت حرارة حُمَّى الحياة شدةً في المسلم، زادت معها قدراته على امتلاك ناصية الفكر الحضاري الذي يسعى إليه، لأنه عندئذ يجعل رسالته في الحياة هي العيش من أجل الحقيقة لا من أجل أي شيء آخر.. والعيشُ من أجل الحقيقة هو أُولى خُطى المعرفة الحضارية الآتية.. فهذه الحرارة ستذيب تراكمات الزمن على أبواب الإدراك، وتعمل على تنظيفها.. وعندئذ يمكن أن يشرع بحوار مع نفسه ومع الطبيعة والكون...

ويجدر بنا أن نلخص مضامين هذا الكتاب بعدة نقاط على الشكل الآتي:

إنه يتحدّث عن المقاربات الفكرية بين "كولن" وعمالقة الفكر الإنساني عبر التاريخ.. وعن مفهوم "الحرية" عند "كولن" وعند رواد الحرية المعاصرين.. وعن المردود الأخلاقي للتفسير الروحي للكون عند "كولن".. وعن التجوهر الإيماني في ذات الإنسان، ومردود ذلك على حياة البشرية.. وعن الحوار من أجل سلام يعمُّ البشرية قاطبة كما يفهمه "كولن".. وعن مدارس الخدمة عند "كولن"، وتشكيل العقل الحضاري الجديد. الانبعاث الحضاري في الأمة ما هي قواعده وأصوله؟ وما

هي لبنات هذا البناء من أين وكيف؟ عوامل النهوض الحضاري كيف نشخصها؟ وكيف السبيل إلى استخدامها؟ العقل الحضاري كيف نبْنيه؟ السلوك المتمدن كيف نشكّله في النفوس؟

القدَر في ضوء الكتاب والسنة

يمكن أن نلخص مضامين موضوع "القدر" كما جاءت في كتاب الأستاذ فتح الله كولن بالآتي:

١-للإنسان إرادة لا شكّ في ذلك، ولكنها ليست الإرادة الوحيدة في هذا العالم.

٢-ما يريده الإنسان ليس بالضرورة حتمي التحقق، فتَحققها منوط بنفاذها من بين مجموعة إرادات أخرى؛ إنسانية، وكونية، وقدَرية.. فعليها أولاً: أن تنفذ من بين زحمة إرادات البشر المتصارعة؛ وثانيًا: ألاّ تصطدم بإرادة أكبر، هي إرادة الكون المتجلّية في نواميسه ودساتيره؛ وثالثًا: ألاَّ تناكف قوة أعظم، هي قوة القدر الذي يطوي الوجود جميعًا في قبضة يده.

٣-صراع الإرادات البشرية، وهيمنة النواميس الكونية، تحدُّ من إرادة الإنسان، وهي كذلك بعضٌ من مظاهر تجليات القدر.

٤-يقوم القدر بين البشر مقام المعلم الحكيم بين تلاميذه، فهو لا يعطل عقولهم ولا يحجر عليها، ولكنه يوجه مساراتها من بعيد.

٥-إنه لا يشل إراداتهم، ولكنه يسمح بنفاذ بعضها ولا يسمح بنفاذ أخرى لحكمةٍ يراها هو ولا نراها نحن.

٦-قد يبدو القدر قاسيًا على الإنسان، غير أن هذه القسوة تخفي في طياتها حكمة خافية عن عقولنا القاصرة لكنها موجودة لا شكّ في وجودها.

٧-إنَّ يد الإنسان، ويد القدر الإلهي، موجودتان معًا في كل الأحداث والوقائع كما يقول "النورسي"؛ فحبْل الأقدار أحد طرفيه بيد الإنسان، والطرف الآخر بيد القدر.. ومن حركتهما معًا تتنزّل الأقدار، وتتشكل الأحداث والوقائع، ولمزيد من إلقاء الضوء على ما جاء فيه نقول:

يتناول الكتاب مسألة القدر التي عُدَّت من مزَلاّتِ الأقدام، ويقدمها بأسلوب سهل مقنع من خلال أمثلة واقعية، ويبين أنها مسألة "حالية وجدانية" أكثر مما هي مسألة عقلية.

والكتاب مفعم بالأجوبة الشافية المزيلة لما علق في العقول من أدران الشبهات حول القضاء والقدر، وما يتعلق بهما من العلم الإلهي والمشيئة الإلهية، والخلق والجزء الاختياري للإنسان وماهية الجزء الاختياري.

ويوضح الكتاب صلة الإنسان بالقدر، ويحلل المسألة من خلال الآيات الكريمة والأحاديث وإيضاح هيمنة القدر والتقدير والنظام والانسجام والتخطيط والميزان والاتزان على الكون كله بدءًا من أصغر شيء إلى أكبره، سواءً أكان حيًّا أو جامدًا. كما يوضّح بعدم وجود تناقض بين القدر الإلهي والإرادة الجزئية للإنسان، ويعقد موازنة بين المشيئة الإلهية

ومشيئة الإنسان مبيّنًا وظيفة الإرادة عند الإنسان.

ويحس القارئ اللبيب وهو يقلب صفحات الكتاب أن المؤلف يتناول هذا الموضوع الشائك بأسلوب شيق سلس يستفيد منه العوام والخواص. ونلخص ذلك من خلال الأسطر الآتية:

- أنت حُرٌّ، فإذن أنت مسؤول.
- المشيئة الإلهية، والمشيئة الإنسانية، ما هو الرابط بينهما؟
- علْم الله المطلق بما كان وبما هو كائن وبما سيكون، ليس فيه إلزام للإنسان بفعل ما هو المعلوم عند الله تعالى.
- الثواب والعقاب على نوع الاختيار.
- الجزء الاختياري عند الانسان هو مناط التكليف والحساب.

أذهان حائِرة

في كل عصر من العصور تنجم في الأذهان إشكالات يحار فيها المرء ولا يهتدي إلى حلول لها، فيكثر من السؤال عنها من أصحاب الخبرة والمعرفة... ولهذا العصر الذي طغت فيه الماديات على الروحيات إشكالات.. منها ذاتية تنتاب المؤمن ويسعى ليجد أجوبة عنها.. ومنها إشكالات تطرحها الحضارة القائمة والعلوم الحديثة قد تجرُّ المؤمن إلى التشكك في إيمانه أو في مستلزمات هذا الإيمان.

وفي مجالس الأستاذ "فتح الله" الوعظية وفي غيرها من المجالس يُسأل الأستاذ من قِبل طلابه والحاضرين عمومًا عن بعض هذه الإشكالات التي تراود أذهانهم، فيسارع الأستاذ إلى الأجوبة عنها ومناقشتها بشيء من الشرح والتوضيح، وبشكل مسهب تتجلّى فيه حقائق الأشياء وتنحلُّ العقد وتتكشف الأمور بحيث لا يبقى الذهن في ريبة من الأمر...

وقد جُمعت هذه الإشكالات التي سئل عنها الأستاذ في مجالس مختلفة وأوقات مختلفة في كتاب سمّي "أسئلة العصر المحيرة"، منها ما يتعلق بالإيمان والقرآن، ومنها ما يطرحه المادّيون من أسئلة لغرض تشكيك أهل الإيمان بإيمانهم، ومنها ما يتعلق بالخلق والإيجاد، وبنظرية التطور، وغير ذلك من قضايا تشغل أذهان طلبة العلوم بكافة أصنافهم...

وبالمجمل فهذا الكتاب محاولة غاية في الجد لإنقاذ الحائرين والمتشكّكين من التردّي في المهاوي الخطرة التي قد تجرُّ إلى الجحود والإنكار، كذلك فهو يعزز إيمان المؤمن ويقوّيه ويثبّته ويبعث فيه الإيمان بأحقية معتقداته وبمصداقية مسلماته.

فالجيل الجديد يحاول حاليا تلمّس طريقه بين كل هذا الصخب من الأفكار والفلسفات التي تغزو دياره والقادمة إليه من الشرق والغرب. ومعظم هذه الأفكار الجديدة عليه تشكل تناقضا مع ما ورثه من أسس فكرية انتقلت إليه من مجتمعه. وهو في خضم هذه الأفكار الجديدة المتضاربة بعضها مع البعض الآخر والمتناقضة مع جذوره الإسلامية يقف حائرًا: أيدَع نفسه للتيار القوي الهادر الذي يحاول قلْعه من جذوره، أم يرجع إلى جذوره؟ ولكن كيف يرجع وجذوره الفكرية هذه متهمة ليل نهار بالرجْعية وبأنها لا تناسب روح العصر؟

لذا ففي مثل هذا الخضم الصاخب من الأفكار يكون دور مثل هذه الكتب التي تتناول المواضيع التي تثار حولها الأسئلة مهمة جدا وطوق نجاة للعديد من الشباب الذين يتوقون لمعرفة الحقيقة ولا يدْرون كيف يصلون إليها. قد أخذ الأستاذ محمد فتح الله كولن حاجة الشباب بنظر الاعتبار فصرف جهدا كبيرًا في سبيل إزالة الشكوك والإجابة على

الاستفسارات والأسئلة التي تحيّر عقولهم.

هذا الكتاب عبارة عن جملة عظيمة من الإجابات عن أسئلة تحير الأجيال الصاعدة من أمّتنا، وهو محاولة لإنقاذهم من التردي في مهاوي الشك الذي يحاول زرعها في نفوسهم أعداءُ الدين.

ويمكننا تلخيص ما جاء في الكتاب بالآتي:

- إنه جواب يبلغ حدّ الإقناع على تحديات العصر الشكوكية.
- خلود القرآن، كيف؟ ولماذا؟
- الموت، معناه الديني والفلسفي.
- ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(الأعراف:١٧٢)، كيف نسمعه ونشعر به؟
- نظرية "داروين"، ما سرُّ التشبث بها على الرغم من تهافتها؟
- "الدور والتسلسل" في الخلق والإيجاد.

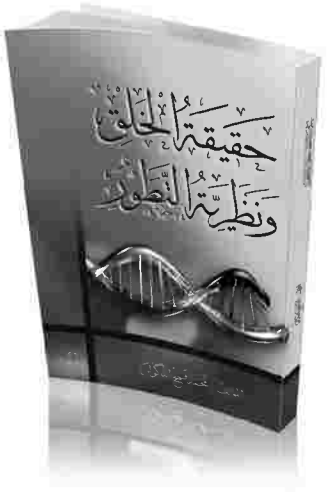

حقيقة الخلق ونظرية التطور

ينقد الأستاذ "فتح الله كولن" في كتابه نظريةَ التطور لـ"داروين".. فهو يرى أن "الداروينية" سقطت إلى الأبد في اليوم الذي أثبت فيه العلم الحديث أنَّ لهذا الكون قانونًا يحكمه، ويضبط شؤونه، ويدير آليته.. وهذا يعني أنّ للكون عقلاً يهيمن على جزئيات الكون وكلّياته، وبذلك تسقط مقولة "الداروينية" بنفي العقل عن الكون.

ومبدع العقل الكوني هو مبدع كلّ العقول، وهو الله سبحانه وتعالى الذي سعت "الداروينية" إلى حجب وجوده عن العالم وإبعاده عن إرادة الخلق والإيجاد.

وفي الغرب كما في الشرق، مفكرون كبار نقدوا الداروينية وأثبتوا زيفها، منهم "برناد شو" المفكر الإنجِليزي المشهور؛ فقد هاجم هذه النظرية بقوة وسخر منها واعتبرها واحدة من أسباب تدهور الغرب

وتصدُّع حضارته.. وهو يرى -كما يرى كثير من مفكري الغرب ومنهم المؤرخ الكبير "توينبي"- أن العودة إلى الدين هو المنقذ والمخلّص لهذه الحضارة من التدهور والسقوط المريع.[٤٤]

وقد سعى الأستاذ فتح الله كولن في كتابه آنف الذكر إلى تبديد الأوهام التي تحاول هذه النظرية غرسها في عقول أنصاف المتعلمين في الشرق العربي والإسلامي بما تحيط به نفسها من هالة علمية مشلَّة للأذهان، ومخدّرة للعقول؛ فقليل من البصيرة المدركة كفيلة بكشف عوار هذه النظرية وتهافت أركانها، وتساقط أسسها.

فإذا كان أصل الإنسان حيواني الجذور، فأين يذهب "داروين" بأشواق الإنسان الروحية والماورائية، وكيف يفسّر قيام النظم الروحية التي تغطّي العالم، والنظم الذهنية العالية اللذين يجد فيهما الإنسان تلك النشوة الحيوية التي هي أعمق من أن يدركها المدركون، وأوسع من أنْ تحتويها أوسع الذهنيات..؟! فما يحدث في دواخل الإنسان من الإدراكات العالية يعني أن الإنسان أعظم وأرقى من أن يكون حيواني الأصل، بل هو صناعة إلهية وهِبَ من الحالات الذهنية الواسعة والعميقة بقدر ما في الكون من عوالم. وهذه النظرية لا زالت تحدث بلبلة في فكر الجماهير، ولاسيما بعد محاولة بعض الكتاب المسلمين للتأليف بينها وبين الإسلام، وهي نظرية خطيرة جدًّا لأنها:

١-تحاول إثبات أن جميع المظاهر الرائعة للحياة ظهرت بعوامل المصادفات، لذا فلا حاجة هناك لوجود الخالق.

٢-تحاول إثبات أن الحياة صراع، والبقاء للأقوى، وأنه لا مجال هناك

[٤٤] انظر: سقوط الحضارة، لكولن ولسن.

للضعيف... لذا كانت هذه النظرية السند العلمي للنظريات العنصرية كالنازية والفاشية.

٣-هذه النظرية تخالف ما جاء في جميع الكتب السماوية من أنَّ آدم عليه السلام هو أبو البشرية: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»، لذا فهي تزرع بذور الإلحاد والشك في نفوس جميع أتباع الكتب السماوية. وبما أن هذه النظرية لا تزال تدرَّس في جميع المدارس والجامعات في العالم فإن خطرها لا يزال مستمرّاً، ولم يتم القضاء عليها كما يتوهم بعض البسطاء وبعض المتفائلين.

إذن فلا بُدَّ من أن يقف عندها أصحاب الدعوات لكي يبينوا زيفها وخطأها وخطرها على الفكر الديني، وهذا ما فعله المؤلف في هذا الكتاب. فالكتاب في سطور هو:

- كتاب نقدي يسعى لتفنيذ نظرية "داروين" في "النشوء والارتقاء".
- آثار هذه النظرية التخريبية في الدين والمجتمع والدول.
- "الحياة للأقوى" مفهوم دارويني يؤجج الصراعات بين الشعوب والحضارات، ويبرر استعمار القوي للضعيف.
- الإباحية الجنسية وجذورها الداروينية في العصر الحديث.

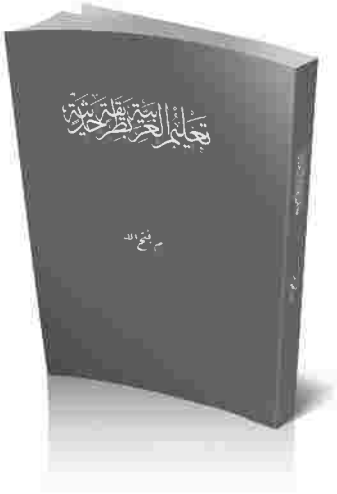

داعية القرآن

داعية القرآن، السالك طريقه، العاشق له، الهائم به، الحامل رسالته، الشارب من رحيقه، الهادئ إليه، المهتدي به، الجائع لكلامه، المتعطّش لزلال ينابيعه، الساهر ليله بكلامه، المتعبّد بلسانه، المعلِّم بلغته، المتألّم بآلام أتباعه، من الذين يقدسونه ولكنّهم عن فهمه عاجزون، لأن العربية لا يفهمون.. إنه يدعوهم ليجهدوا في تعلم العربية، ولو بالقدر الذي يمكّنهم من فهم ما يقرأون من آياته وكلامه...

إنّه فضيلة الأستاذ فتح الله كولن.. الذي أحبَّ للعربية أن تكون تاجًا فوق رؤوس المؤمنين من أبناء جلدته الأتراك.. فكَم حدّثهم عن القرآن، وحدّثهم عن تعاليمه وعن قداسته، وحثّهم على تعلّم لسانه؛ فألّف لهم كتابًا غاية في البساطة والسهولة لمن يرغب في تعلّم هذه اللغة التي تفتح لهم طريق فهم القرآن واستدراك ما فاتهم من خير كثير بجهلهم بها..

وقد ألّف الأستاذ هذا الكتاب لتلامذته الذين كانوا يتلقّون عنه دروسهم الدينية لكي يساعدهم إلى حد ما على فهم ما يقرأون من كتاب الله في الستّينيات من القرن الماضي، وهو في العشرينيات من عمره.. و لا زال إلى اليوم يدرّس العربية والعلوم الشرعية لطلابه ضمن منهج يومي متوالٍ..

فكتابه "تعليم العربية بطريقة حديثة" بأجزائه الخمسة، إذا أقبل أيّ إنسان على اتخاذه معلمًا له مبتدئًا بجزئه الأول ومنتهيًا بجزئه الخامس، فإنه سينتهي من ذلك وقد ملك مفاتيح هذه اللغة التي تتيح له فتح أقفالها والإيغال في طرقها وشعابها..

يقول فضيلة الأستاذ عن هذا الكتاب ما يأتي:

"نوينا في سعينا هذا طريقة جديدة ضاربين في جهات شتّى عن نواحي حياة الطفولة، فبذلنا جهودنا في وضع تمرينات عديدة سهلة المعنى قدر الإمكان، وموافقة لمدارك المبتدئين.. ونحن نأمل أن نتمكن من وضع أشرطة تسجيل تعليمية لنصوص الكتاب كأسلوب يساعد الطالب على أن يتعلم بنفسه.. الله أرجو أن يؤجرنا وأن يوفّقنا -بجهدنا القليل هذا- في نشر لغة القرآن وتذليل الصعوبات التي يعانيها التوّاقون إلى تعلّمها، والله من وراء القصد كله، وإليه المرجع والمآب.."[٤٥].

ويقول في حرقة قلب عن القرآن:

"يَتيم هو... أفْديه بروحي... نعم يتيم هو... هناك جموع غفيرة لا تعرف لسانه، ويتألّمون بجهلهم بلسانه... هذا القرآن يبكي بمرارة، إنّه يتيم منذ ثلاثة عصور... لقد مات والده... ماتت جماعة الإسلام... لقد

[٤٥] تعليم العربية بطريقة حديثة، فتح الله كولن، مقدّمة المؤلّف، ص:١.

كان بطَلي ومقدامي... دفَنوه في الربوة المقابلة... يتيم هو القرآن.."[٤٦].

فهذا الكلام النابع من حرقة قلب صاحبه ينمُّ عن عشق عظيم للقرآن ولغته، وهو بالتأكيد السبب الذي دفَعه إلى تأليف هذا الكتاب إسهامًا منه في تعظيم كتاب الله، وبالتالي تعظيم اللسان الذي أُنزل به.. وهو في الوقت نفسه دعوة كريمة للمسلمين من غير العرب للاهتمام بتعلّم هذه اللغة، لأنها توصلهم إلى فهم كتاب الله، وهذا هو أسمى ما يبتغيه كل مؤمن صادق الإيمان... فهذا الكتاب إنما هو:

- منهج لتعلم العربية لغير العرب.
- مكتوب لتعلم العربية من غير معلم.
- يأخذ بنظر الاعتبار التعليم لكافة الأعمار.
- كتاب موضوع على أسس تربوية تشويقية للمتعلم من غير ملل.
- هو مفتاح يفتح أبواب "العربية" للمتعلم.

[٤٦] وعظ "الحزن المقدَّس"، مسجد "الحِصار" بمحافظة إزْمِير / تركيا، تاريخ: ٢٤ يونيو ١٩٩٠.

منطلقات القوى الروحية في الإنسان

يدق الأستاذ "محمد فتح الله كولن" من خلال فكره على أبواب القلب، يطرق ويديم الطرق: "اِفتحْ يا قلب... دعني ألج بكلماتي إليك... دعني أُعالج أغلاق خزائنك... دعني أكشف عن أسرار مداخلك... دعني أطلق قواك الخفية... وأُدير مفتاح الفهم عن الله في روحك... دعني أبتعث فيك مواجيد الحنين... دعني أنفض عن أهداب روحك نعاس السنين... دعني أشقّ أكفان الموت عنك... دعني أبدد ضبابيات الأرض التي تغشى وجودك... دعني أنقش صورة الآخرة على صفحة الشغاف منك... دعني أعَرِّف ذاتك بذات الكون... دعني أعقد معرفة بينك وبين الطبيعة، وصلحًا بينك وبين شقيقك الإنسان..!".

والأستاذ فتح الله كما هو قمّة عالية في أفكاره الإيمانية والدينية، فهو كذلك قمة عالية في قدراته الأدبية والفنية، يجمع بينهما بجدارة واستحقاق،

ومن هنا تأتي كتاباته مزيجًا من الاثنين معًا، فتتميز وتنفرد مذاقًا وأسلوبًا.

فمجموعة مقالاته الافتتاحية في مجلة "رشْحَة" (Sızıntı) الشهرية، تؤكد ما ذهبنا إليه من هذا المزج بين القدرة الدينية والقدرة الأدبية عند هذا الرجل، يعالج فيها قضايا إيمانية عظيمة الأهمية بأسلوب أدبي رشيق يستطيبه وينجذب إليه القرّاء مهما كانت مستوياتهم الثقافية والفكرية.

وأفكار "كولن" كيانات حيّة تنبض بالحياة، لأنها بعض نفسه، وبعض من فلذات روحه وقلبه.. زَقَّهَا حباتِ الروح، وسقاها دم القلب قبل أن تنضج وتستوي وتأخذ طريقها إلى عقول القرّاء وقلوبهم.

ولا شيء من الوصف يصدق على الرجل كما يصدق عليه وصْفنا بأنه روح عظيم حَوَّامٌ فوق عظيم الأفكار بدافع من شرف المحتد، ونبل الخُلق، وطهارة الضمير، وهو كثير الانطلاق إلى مواطن الذكرى من التاريخ الذي ينتمي إليه، حتّى غَدا قلبه غابة شجن وَوَجْدٍ، ودمعه ينبوع حرقة وكمد، يكاد يتمزق عندما يمُرّ على أطلال حضارة كانتْ يَوْمًا مَا مِلأَ عين العالم وسمعه، أو يُقَلِّبُ صفحات دين مهجور جفاه أهله، ونأى عنه القريب قبل الغريب، وجهل ناسه مواطن العظمة فيه فنسوه وأهملوه.

إنه يسجل في هذه المقالات أطهر مشاعره، وأقدس أحاسيسه، وهو يحوم حول الكعبة المشرفة التي يرى أنها سُرَّة العالم، ونقطة المركز من الأرض، وصلة الوصل بين الأرض والسماء.

وأما القبَّة الخضراء -وما أدراك ما القبة الخضراء؟- فعندها يذوب الحشا ويركع القلب، وتخشع الروح، وتتساكب العبرات، وتتقطَّع الأنفاس، ويرتفع أنين الشوق حتى يلامس السماء. إنه في الحضرة المحمدية التي يتمنّى أن يكون ذرة في ترابها تطأها قدما أطهر إنسان مشى على وجه البسيطة.

ويمضي في سُرَاه حتى يصل بيت المقدس وقبَّة الصخرة، وينثر هناك فوق هذه الصخرة التي عرج منها الرسول ﷺ إلى السماء مدامع قلبه، ودفقات حنينه، وومضات أشواقه... إنه يصغي إلى الصخرة العتيدة وهي تحكي قصة التاريخ الروحي للبشرية منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ.

ويمضي عائدًا فيتحدث عن "آيا صوفْيا" الصرح التاريخي العتيد، وعن جامع "السلطان أحمد" الذي يقوم شامخًا قبالتها يتحدّى عظمتها ويعتلي فوق هامتها وبلمعة من لمعات روحه، يكتشف سرّ ذلك، ويتعرّف على خفايا الرمز الذي يربط بين الصرحين العظيمين، وعن المعاني الروحية الكامنة في سرِّ الأحمدية "التي يستمد الصرحان منه الكثير من هيبتهما".

آمل أن أكون قد وفّقْتُ -إلى حد ما- برسم بعضٍ من ملامح هذا الفكر وسِماته العامة. وهو كما يأتي:

- الكتاب مفتاح عظيم لأبواب القلب المستعصية على الفتح.
- القلب الفهيم عن الله، كيف ننْشئه؟
- معرفة حميمية بين ذات الإنسان وذات الكون، كيف نقيمها؟
- دين عظيم لماذا جفاه القريب قبل البعيد؟
- دمعة حزن وأسى على مواطن الذكرى من التاريخ الذي ينتمي إليه المؤلف.
- نبع دفَّاق من المشاعر والأحاسيس، يروي عطش الروح والفكر.